

- أمة الحضارات والجهاد

## أمة الحضارات والجهاد

بقلم: الفريق عفيف البزري

### الفصل الأول

#### جملة المجتمعات الانسانية

##### تعريف الجملة الانسانية

عند التقدم في مراحل التاريخ الانساني تتقدم أيضاً العلاقات الاجتماعية في المجتمع الواحد وبين المجتمعات بحيث تقوم في النتيجة أكمل صورة للحياة بالكائن الحي الشامل المؤلف من جملة (منظومة) المجتمعات الانسانية المترابطة ترابطاً عضوياً. وإن نمو هذه الجملة الانسانية تكاد تقابل نمو كائن حي: من البدايات البسيطة لولادته إلى الأطوار العليا لوجوده. وهذه المراحل هي الأطوار العامة للمجتمعات من المشاعة البدائية فطور الرق فالطور الاسلامي فالرأسمالي فالاشتراكي الخ... وفي إطار هذه الجملة ونتيجة لعملية تقدمها في نموها نشأت وارتقت مختلف التجمعات الانسانية التي أخذ كل واحد منها دوره في دفع هذه العملية التاريخية الكلية (كمضوحي للجملة يدوم بدوام دوره فيها): نشأت وتطورت المجتمعات على اختلافها ونشأت الأمم والأجناس والدول وغيره.

وبعبارة بسيطة، إن التجمعات الانسانية للجملة في كل فترة من تاريخها هي مقوماتها وأعضاؤها المتفاعلة فيما بين بعضها بعضاً بالتفاعلات المناسبة لتلك الفترة، فهي تقوم بالجملة كما تقوم الجملة بها. وهذه الأمور على بساطتها على درجة كبيرة من الأهمية، ولعل أهمها هو الذي يقود إلى ارتكاب الأخطاء الفادحة ويفسح المجال للتضليل في عدد من القضايا الاجتماعية الأساسية:

- في التعريف المتداول للأمة مثلاً لا نجد أي أثر لدورها في تكوين جملة المجتمعات الانسانية مع أن نشوء الأمة وتكاملها عملية لها وجهان، فهي في الوقت الذي تشكل فيه عملية تكون الأمة فإنها تشكل أيضاً دور الأمة الذي تضطلع به في بناء جملة المجتمعات الانسانية. فالأمة إذن، ككائن مادي، تحتاج إلى زمن كاف لتكوينها وللممارسة دور محسوس في بناء الجملة الانسانية بحيث نجد أن المزايا والصفات التي ترد في التعريف المتداول للأمة كاللغة والأرض المشتركة والاقتصاد الواحد والنفسية الواحدة ثانوية وعابرة بالنسبة لدورها التاريخي الطويل: من البديهي أن مزايا الكائن وصفاته تقوم بعملية تكونه وهي تتعدل وتتبدل في مختلف مراحل نشوئه وارتقائه. فيكون إذن خير معرف ومحدد لأي كائن مادي هو دوره في الجملة المادية التي يعود إليها. وفي حال إغفال هذه الجملة تغفل بطبيعة الحال الدور المذكور وتقع بالتالي في محديدات وتعريف لا تحدد ولا تعرف.

- وإغفال جملة المجتمعات الانسانية يفسح المجال للظن الخاطيء المضلل بإمكان وجود المجتمعات الانسانية المتزامنة في أطوار تاريخية مختلفة وكأنها لا تتفاعل فيما بين بعضها بعضاً، وكأن كل واحد منها يعيش

معزولاً عن المجتمعات الأخرى (فلا يشترك معها في بناء جملة واحدة وفي المرور بطور واحد ومرحلة واحدة هو طور الجملة أو مرحلتها).

إننا بناء على ما تقدم، نجعل من مفهوم جملة المجتمعات الانسانية مقولة أساسية توجه إدراكنا في كل بحث يتناول المجتمع الانساني.

### أطوار الجملة الانسانية

تأخرت بدايات هذه الجملة دهوراً طويلة عن ظهور الانسان على الأرض، أو بعبارة أخرى: إن الانسان قضى أزماناً طويلاً كي يرتقي إلى مرحلة الحياة الاجتماعية في بداية جملة مجتمعات تنشأ وتنمو وتتكامل. وقد مرت هذه الجملة بالأطوار والمراحل التالية:

#### أ - طور المشاعة البدائية:

تمكن الانسان في الدهور التي سبقت وعيه أن يحتل، على العموم، مكاناً في الطبيعة يوفر له حاجاته المحدودة بيسر وسهولة. وعندما خرج من طور القطيع إلى طور المشاعة البدائية حيث اكتملت فيه منطلقات الملكات الانسانية العليا عاش في نظام العائلة والقرابة الدموية دهوراً طويلاً عدد من مئات ألوف السنين. وكان لضعف وسائله طوال هذا الزمن قد اعتاد على التعاون للحصول على حاجاته الحياتية. فتأصلت وتنامت فيه غريزة تساوي الناس وتقاربهم حتى ترسخ في ذهنه بديهية ارجاعهم إلى نسب واحد هو الزوجان آدم وحواء. وقد تأخر عنده طوال تلك الدهور من الوعي قيام مفاهيم الملكية الخاصة والاستعلاء واستعباد الآخرين لانعدام أسسها المادية وضآلة جدواها في تقدم تلك الحياة البسيطة، في الوقت الذي تأكدت عنده غريزة الحرية التي غدت فيه تعادل في قيمتها الحياة بذاتها. فهولم ويدجنه « طوال مئات ألوف السنين سوى الانتباه إلى العائلة والأقربين، ثم التعامل مع الآخرين، غير الأبعدين، في عمليات التبادل وما شابهها على قدم المساواة بنتيجة التجارب التي تكررت ملايين المرات بحلولها ومرها. وقد اتسعت أمامه آفاق التعامل الحر، التعامل على قدم المساواة، شيئاً فشيئاً بتقدم وسائله وتجاربه حتى بلغت آفاق الأبعدين من بني الانسان. وكانت خلال ذلك تصقل غريزته بالشعور بالحرية وتتسامى لتستأنس أيضاً بحرية الآخرين فيتولد عنده احترام لحقوقهم في الوقت الذي يتأكد فيه شعوره بحقوقه وقداستها. ولتقدير الحقوق كميّاً لأغراض عملية تولد عنده في نهايات هذا الطور مفهوم القيم وقياسها بالمقارنة. ثم أنه بنتيجة تجارب كل تلك الدهور المديدة تأصلت في غريزة الانسان عدالة قانون تكافؤ الفرص ليكون في أساس العلاقات الاجتماعية المعقدة نسبياً في عشية الطور الانساني اللاحق، عشية طور الرق.

وكانت قوى انتاج ضرورات الحياة في المشاعات البدائية تكاد تقتصر على عضلات الانسان لبساطة الوسائل التي ما كانت تعتمدى الحجارة والعظام والعصي. وكان اسلوب تعاون هذه القوى يقوم لسببين أولهما كون الجماعة حينذاك ولدهور طويلة تتشكل من عائلة وقرابات حميمة لا يتجاوز تعدادها العشرات الضئيلة في أكبر تقدير. والثاني للضرورة أمام صعوبات الطبيعة وانعدام الوسائل. وكانت الحرفة منعقدة كقطاع مستقل. فالأدوات واللباس وأشياء الزينة تصنع عائلياً عند لزومها. والنشاطات الوحيدة للحصول على ضرورات

الحياة البسيطة في تلك العهود كانت تدور في مجال الصيد وتدجين الحيوان المفيد والزراعة البدائية . وكان كيان الجماعة الحاصل من عملية نشوء الطبيعي للعائلة يتوازن بدقة مع ظروف الحياة حينذاك فلا يتحمل لذلك أي غريب يندس فيه . لذلك كانت الجماعة تبعد كل غريب عنها بكل الوسائل التي منها القتل ، للتخلص من وجوده المخل بالسير الرتيب لحياتها المادية .

### ب - طور الرق :

قام بتتية تطور أداة الانتاج ، تطور الآلة ، ونشوء وارتقاء الحرفة معها ، قطاع انتاج حاسم يقوم على مهارة اليد الصانعة وارتقاء التجربة والمعرفة . فالحرفة ، التي تطورت في النتيجة إلى الصناعة بأوسع آفاقها ، تمثل دوماً حصيلة التقدم المادي الانساني ، الحصيلة المتجسدة بحجم الانتاج ونوعيته . وهي تنفرع في كل قطاعات الانتاج . فالحرفي مثلاً يصنع أدوات المزارع والصيد ومربي الدواجن إلى جانب حاجات كل هؤلاء من ملابس ومساكن وغيره . والصناعة باختصار ، في حياة الانسان في كل مراحل تطوره وارتقائه ، هي العمود الفقري في الجسم الكلي للانتاج الاجتماعي وفيها تتجسد الحصيلة التاريخية لتجارب الانسان وخبراته واراداته في تدليل ما يعترضه من صعاب لسد حاجاته .

إن ارتقاء الأداة وظهور الحرفة كرس قسمة العمل والاختصاص في الانتاج الاجتماعي وأدى بالتالي إلى تفسخ المشاعة وزوال طورها وقيام طور الرق في نهاية الأمر . فالمشاعة التي قامت في الواقع على العلاقة الطبيعية بالأم ، فتقدمت وازدهرت على هذه العلاقة ، حيث كانت الأم ، تمسك بقيادة الجماعة البدائية المحدودة الحجم (كاستمرار للدور الذي كانت تمارسه في مرحلة القطيع مع الاستجابة إلى الظروف المادية التي كان العمل فيها قليل التنوع عائلياً ومحدود الوسائل) ، نقول أن مشاعة الأم أخذت بالتفسخ بتقدم الأداة وتشعب التخصص في الانتاج وقيام السلطة الأبوية مكان سلطة الأم . وكان هذا في الواقع نهاية الطور المشاعي وبداية مرحلة انتقال من هذا الطور إلى طور الرق دامت عدداً من القرون : ربما عما قبل الألف الرابع قبل الميلاد حتى بعد الألف الثاني قبل الميلاد ، أي خلال العصر الطراني القديم والحديث وإلى ما بعد عصر النحاس وبدايات عصر البرونز . وفي مرحلة الانتقال هذه تطورت قسمة العمل فاختصت كل جماعة بنوع من الانتاج . وقامت بالتالي بين مختلف الجماعات علاقات تبادل السلع . واتسعت هذه العلاقات . وظهرت الأسواق وتطورت . وقامت القرى والمدن . وأخذ الرق بالانتشار نتيجة لتطور الوسائل وتقدم الحرف : كانت ثمرة عمل إنسان المشاعة بالوسائل المتوفرة لديه تسد بالكاد حاجاته البسيطة كي يبقى على قيد الحياة في تلك الظروف . وعندما ارتقت الوسائل وارتقى معها أسلوب الانتاج وأصبح بالإمكان اقتطاع جزء من عمل الانسان (بعد أن يترك له من عمله هذا ما يكفي لابقائه حياً) برزت فائدة استرقاق الانسان لاستغلاله في توليد القيم فكان الرق أول أشكال العبودية التي يستغل فيها الانسان أخاه الانسان .

ظهر الرقيق إذن عندما وجدت ظروف مادية أيقظت أطماع بعض الناس في التحكم بانتاج المجتمع الانساني وحصولهم بالتالي على أكبر نصيب ممكن من هذا الانتاج . ويلوغ هذه الغاية لا يكون إلا بالقسر بفرض نظام مناسب يتحكم به أولئك الطامعون بقوى انتاج المجتمع ، وليس من سبيل آخر ، بالبداية ، أمامهم في كل أطوار جملة المجتمعات الانسانية لتحقيق هذه الأطماع . وتتألف قوة الانتاج ، كما هو معلوم ، من

المنتج وأدواته للانتاج، وللتحكم بها يكفي احتكار التحكم بواحد من هذين الركنين. ولكنه من أواخر طور المشاعة حتى قيام معامل الرأسمالية ومؤسسات انتاجها المعقدة ما كان بالامكان احتكار وسائل الانتاج لبساطتها وسهولة الحصول عليها مع اتقان استعمالها لكل من يرغب فكان «احتكار» المنتج بالذات في هذه الظروف، أي استرقاقه أو إخضاعه لنظام الرق إن بقي حراً ضعيفاً، هو الوسيلة الوحيدة للتحكم بعملية الانتاج الاجتماعي والحصول على أكبر نصيب ممكن من هذا الانتاج. وقد نشأت وتطورت مع قيام علاقة الرق ضرورات أخرى جوهرها الملكية الخاصة التي يعبر صغيرها عن بقايا الحرية الفردية القديمة المفقودة، ويعبر كبيرها عن السيادة والتحكم بالانتاج: ملكية الأراضي الزراعية مثلاً، ملكية العقارات بشكل عام، ملكية المتاجر بما تحتويه من سلع، ملكية قطعان الماشية، ملكية المشاريع المختلفة، ملكية الاموال، ملكية الأعداد الكبيرة من الرقيق إلخ .

إن الحرية التي كان يتمتع بها إنسان المشاعة البدائية، وتتمتع بها قوى الانتاج، في أواخر عهود المشاعة في مطلع مرحلة الانتقال إلى طور الرق، وفرت الظروف لعمل قانون تكافؤ الفرص بدون أي عائق حاسم على العموم. وقد تعطل هذا القانون بطبيعة الحال كأساس لنظام عام لكل أفراد المجتمع وأصبح بأشكال متعددة متميزة كل شكل منها يعود إلى فئة اجتماعية تحكمها الظروف الواحدة بقيام الرق وعبوديته: هناك مثلاً تكافؤ للفرص بين السادة الكبار، وآخر لطبقة الكهان، وثالث للتجار إلخ . وذلك في حدود العلاقات الاجتماعية التي تحكم كل هذه الجماعات. وتعد النظام الذي يخضع له المجتمع وتنوعت الحاجات فيه فلم تقتصر على ما يمس الحياة بشكل مباشر. وظهرت فئات اجتماعية حول العملية العامة للانتاج وتوزيعه وعلى هامشه وبعيداً عنه: كالشرطة مثلاً والعساكر والاداريين والكتبة وأعوان السادة والكهان وخلافهم من اتباع ووسطاء على أنواعهم وياثعي اللذات على أنواعها وللصوص وكل شكل من أشكال المرتزقة. وكل هؤلاء إلى جانب السادة والكهان الذين لا يتنعمون أبداً إلى دائرة العمل والانتاج والتوزيع أصبحوا عالة على الانتاج ولهم النصيب الأكبر منه، وفي أكثر الأحيان يعرقلونه ويسببون له الكوارث بما يفتعلونه من فتن ويشيروه من حروب مدمرة.

ونستخلص مما سبق أن أول نظام قهر واستعباد قام بالأساس على التحكم بقوى العمل بنظام الرق. وسنرى فيما يلي أن التحكم بقوى العمل بالنظام الرأسمالي هو الشكل الآخر للقهر والعبودية: أشرنا أعلاه أنه للتحكم بالانتاج وبالتالي للتحكم بتوزيعه يكون البدء بالتحكم بقوى العمل بحسب نظام يتناسب مع تطور هذه القوى التي تتألف دوماً من اليد العاملة للإنسان ووسائلها في الانتاج. وعلى هذا الأساس يقوم الأمر التالي: يتعطل قانون تكافؤ الفرص لكل أفراد المجتمع بتحكم طبقة اجتماعية بواحد من نظامين اجتماعيين الأول نظام الرق في ظروف بساطة وسائل الانتاج واستحالة احتكارها فتسترق طبقة السادة المنتج مباشرة، والثاني النظام الرأسمالي الذي تحتكر فيه طبقة الرأسماليين ملكية وسائل الانتاج. هذا في الجوهر، ولكن النظام يكون معقداً ولا يقف عند شكل واحد للقهر والعبودية. لقد قلنا أن هدف العبودية في كل نظام هو التحكم بعملية توزيع انتاج المجتمع لتحويل أكبر قدر ممكن منه إلى خزائن الطبقة السائدة، وذلك بنسب متفاوتة بحسب تفاوت قوة وسطوة السيد في النظام القائم. أي أن الأحرار في هذا النظام، وخاصة الضعفاء منهم، قد تنحط أحوالهم إلى درك دون سوية الرقيق فلا يحصل الواحد منهم مثلاً على المقومات الضرورية لاستمرار

حياته . وعلى العموم فإن الأعلى في السلم الاجتماعي يسترى الأدنى والجميع يستعبد لهم النظام . ونجد في النتيجة أنه من العيب القول أن نظام الرق أو نظام الرأسمالية له الفضل في تحقيق هذا التقدم المادي والروحي أوذاك ، أو أن من مهامه الوصول بالإنسان إلى هذه الدرجة أو تلك من التقدم . فالنظام الاجتماعي ليس سوى طريق يتحقق عبره شكل معين لتوزيع الانتاج الكلي ، أما التقدم المادي والروحي فهو الطموح الثابت للإنسان يحقق منه الممكن في كل نظام ، وهو خاصة أساسية للحياة الإنسانية لا تتغير بالنظام القائم وإنما تزدهر أو تكبت بمقدار كبت الهدر أو زيادة الضياع في القيم الحاصلة في المجتمع ، ولا يزيدها القهر والعسف إلا خساراً : هنالك ظن مثلاً بأن التنافس بين سادة النظام القائم والحروب بين الأمم تدفع المتنافسين والمتعادين إلى العمل على تحقيق أقصى ارتقاء ممكن لوسائلهم لتحقيق التغلب على الخصم فيقوم بذلك التقدم . والواقع أن قيماً هائلة تهدر في التحضير للحروب وفي التنافس ، إلى جانب الحسائر المادية الفادحة التي تسببها الحروب والتناحرات . وقد خسرت الإنسانية مادياً وروحياً بنظم القهر التي مرت عليها ولم يكن لهذه النظم من فائدة أبداً إلا انزال الكوارث والعذاب بالناس . وإن ما حققته هذه النظم من يسر ونعيم (زائل عل كل حال) لبعض البشر لا يبرر أبداً ما نجم عنها من شقاء للأكثرية الساحقة لبني الإنسان .

إن نظام القهر لا يتوقف عند حدود المجتمع الواحد فهو يدهاها يسود ويتشرب في الجملة الإنسانية فتقوم المجتمعات على قهر بعضها بعضاً وينتهي الأمر إلى أن تسود قلة منها على البقية . ففي طور الرق مثلاً كان الأسياد في المجتمع يشنون الحروب على جيرانهم للحصول على الأسرى الذين يغدون أرقاء لهم ولتهب الثروات والقيم والمواد الأولية للانتاج ولإقامة الممالك والامبراطوريات العبودية . ثم إن نظام المجتمعات الأكثر تنديماً مادياً هو الذي يسود ويستوعب أنظمة بقية مجتمعات الجملة الإنسانية ويجعلها امتداداً له ولهيمنته العالمية . قلنا أن المشاعة التي بلغ طول زمنها مئات مرات أطوال العهود الإنسانية الطويلة التي تلتها رسخت في غرائز الإنسان محبة الحرية وصقلت هذه الغريزة بالتجارب الحلوة والمرارة التي تكررت ملايين المرات فيها وجعلتها تتسامى إلى الشعور ببداية حرية الآخرين ، وبالتالي ، ببداية تماثل البشر ويجدوى التعامل معهم على قدم المساواة . وعندما أتت عهود الرق وفرضت على الإنسان عبودية نظامها وعطلت حريته بهذا النظام ونقضت فيه تساويه الطبيعي وجعلت منه أصنافاً ورتباً وسلبيته حقوقه فإن آثار نشأة الحياة الطبيعية في تكوين وجوده المادي والروحي بقيت تزكي ذكرياته بعهود المشاعة التي لم تندثر مادياً وإنما بقيت لها صورة مثالية باستمرار بقاء العائلة : إن الرقيق مثلاً عندما يرى عائلات السادة والأحرار الآخرين حوله يتذكر حقه بعائلة مثلها . كل ما يحيط بإنسان مجتمعات العبودية بمختلف أشكالها لا يولد عند هذا الإنسان في النهاية سوى صورة تناقض مختلف الفئات وتعارضها ، لا يولد بالتالي عنده سوى الإدراك العميق بتعارض الواقع المادي مع ما يجب أن تقوم عليه الطبيعة الصادقة للحياة التي نشأت وتطورت غرائزه الأولى فيها . لذلك نشأت في ذاكرته أشكال مثالية لعالم المشاعي البائد ، بل لعالمه عندما كان يعيش في القطيع : يقول ديورانت في قصة الحضارة أن السومريين ثم قدماء المصريين صوروا الإنسان الأول بصورة الحيوان فلا يستطيع النطق بلغة مفهومة ولا يعرف شيئاً من فنون الحياة . كما اعتقد المصريون أن الإنسان الأول هو من أبناء الإله «رع» ، الشمس ، فكانت السعادة لذلك تغمر حياته . ويقول قدماء البابليين أيضاً أن عيش الإنسان الأول كان عيشاً حيوانياً فهو لم يتعلم العيش في المدن في مجتمعات مقننة إلا في طور متأخر عندما أتى مخلوق نصفه سمكة ونصفه إنسان اسمه «اونس»

وعلمه العلوم . وكلمة «اونس» فيها أصل الاستئناس أو التمدين بالأحرى . نقول إذن أن ذاكرة الأجيال ، في قهر وعذاب نظام الرق ، احتفظت بصور مثالية لأيام المشاعة الأولى وحياة القطيع . وامتدت هذه الخيالات في القصص الشعبية إلى العهدين اليوناني والرومي فكان مثلاً ، كما نقرأ في بريتانيكا ، الاله «كرونس» Cronos ابن «اوانيسوس» (السياء) و«جايا» (الأرض) إله العصر الذهبي ، أيام المشاعة ، حيث كان الناس يعيشون في الجنات قبل أن جاء ابنه زيوس وقلب عصره ( أي أقام نظام الرق ) . وهناك إله للروم يشبه هذا اله اليوناني فكان له عصر ذهبي مثله تغنى به الشعراء والكتاب ولكن ابنه جوبيتر قلب السهيته وجعله يلتجئ إلى منطقة اللاتيوم حول روما . وكان لهذا الاله ، الذي اسمه ساتورن أي زحل ، عيد ضخم ، ساتورناليا ، يقع في وهلة أعياد الميلاد ، حيث كان يتم تحرير الأرقاء مؤقتاً ، لفترة أيام العيد فقط ، وحيث كان السادة يشاركون أرقاءهم الأعياد والطعام كمظهر لنفي العبودية وإقامة المساواة بين الناس ، فكانت تزال مثلاً القيود عن رجلي التمثال الذي يمثله في المعبد . فهذا الاله هورب الأرقاء ويمثل طبقتهم وهو ، في ذات الوقت ، رب الزرع والانتاج (الذي يحققه الأرقاء بطبيعة الحال) . ثم أن هذه المعبودات المتأخرة مأخوذة عن معبودات شرقية مفرقة في القدم لا يعرف لها بدء .

نقول إذن أن تلك الذكريات تمثل في أيام عبودية الرق طموح الجماهير العميق إلى التحرر والمساواة . وكانت لذلك لا تبدأ معارضة الانسان لذلك النظام فتقوم بمختلف الأشكال بالثورات والهجرات الجماهيرية هرباً من الظلم والاضرابات وما شابه من أشكال العصيان . إن ثورة سبارتاكوس مثلاً التي هزت الامبراطورية الرومية من أساساتها كانت واحدة من تلك الانتفاضات الدموية الكبرى ضد عبودية نظام الرق . ولكن الثورة الهادفة إلى قلب النظام من أساساته وتغيير طوره العالمي أومرحلته قامت دوماً على دعوة تبيين حدود الظلم وتوضيح طريق الخلاص وتبني عقيدة مناسبة تنير الواقع وتمكن من رسم الاستراتيجية اللازمة لممارسة المقاومة المنظمة بكل أشكالها الفكرية والمسلحة ضد الطغيان . وقد اضطلعت ثورات التوحيد في منطقة الحضارات العربية بهذه المهمة الانسانية وانتهت سلسلتها إلى قلب طور الرق وإقامة طور الاسلام .

إن الجملة الانسانية نبتت من بذورها الأولى التي هي المشاعات البدائية ، وبتيجة تطور وسائل الانسان وتقدم علاقات مجتمعاته في طور الرق قام لهذه الجملة نموذج في كل منطقة متصلة على الكرة الأرضية لا يميزها حواجز جغرافية يصعب التغلب عليها واجتيازها بوسائل انسان تلك العهود : كالمحيطات مثلاً والكتل الجبلية الضخمة والصحارى الواسعة . وقد تم قيام ثلاث حمل مجتمعات إنسانية رئيسية في طور الرق المذكور في المناطق الجغرافية الثلاث التالية :

- ١ - منطقة البحر الأبيض المتوسط المؤلفة من شواطئ هذا البحر والممتدة من جهة إلى أقسام كبيرة من القارة الافريقية ، ومن جهة أخرى إلى جبال هماليا وصحارى تركستان ومنغوليا في قارة آسيا .
- ٢ - منطقة القارة الهندية المحصورة بين المحيط الهندي وجبال هماليا .
- ٣ - منطقة الصين المحصورة بين المحيطين الكبير والهندي وهضبة التبت وصحارى غوبي ومنغوليا وتلوج سيبريا ، وهي تتضمن أيضاً الملايو والأرخبيل الاندونوسي .

ومن المعلوم أن جملة المجتمعات الطبقية تقوم على عدد من المجتمعات المختلفة التي يرتبط بعضها ببعضها الآخر بروابط كافية ودائمة تجعلها تتفاعل وتتناقض، وتتحد تارة في دول وإمبراطوريات، وتنقسم أخرى إلى دول وإمبراطوريات أخرى، تتصادق وتحالف مرة، وتعادى وتحارب مرة ثانية وهكذا. . . ومن المفيد ملاحظة الأمور التالية :

أولاً: أن المدنيات في المناطق الأنفة الذكر سارت بشكل متواز على العموم طوال العصور الأولى لطور الرق دون أن تؤثر الواحدة في الأخرى تأثيراً حاسماً. فأعظم إمبراطوريات الرق مثلاً ما تعدت حدود منطقتها إلى المنطقتين الأخرين: وقفت إمبراطورية إسكندر المكدوني عند حدود القارة الهندية وما مست حدود الصين. وقد تبادلت المناطق الأنفة الذكر الهجرات البشرية الكبيرة والصغيرة حينذاك إلا أن كل تلك الهجرات ما كان باستطاعتها أن توحد الجمل الإنسانية في تلك المناطق في جملة مجتمعات إنسانية عالية واحدة. فالمهاجرون في الوقت الذي كانوا يندمجون بشكل من الأشكال في مجتمعات منطقتهم الجديدة، ويشكلون فيها مجتمعاتهم أو جماعاتهم الخاصة بهم، كانوا ينقطعون عن منطقتهم القديمة لضعف الوسائل وبعد الشقة. كذلك قامت علاقات تجارية بين تلك المناطق الثلاث، ولكن هذه العلاقات ما كانت لتصل إلى دمجها في اقتصاد عالمي واحد تتمركز قيادته في منطقة واحدة من الكرة الأرضية كما حدث في الطورين الإسلامي والرأسمالي.

ثانياً: إن تبادل التجارب ومنجزات الفكر بين المجتمعات في كل منطقة من تلك المناطق وتوارث هذه التجارب والأفكار من عصر إلى عصر، وتطويرها بمساهمة كل المجتمعات في المنطقة، بالبحث والتطبيق وبما ينتج من تراكم عن الممارسات اليومية لانسان المجتمع طوال عصور وحقب تاريخية طويلة: كل مجتمع يساهم بمقدار امكانياته وحسب مزاياه وظروفه الخاصة، نقول أن هذه التفاعلات بين مجتمعات الجملة الإنسانية الواحدة، تولد دوماً حضارات عالية متعاقبة في هذه الجملة. وهذا أمر يناقض رأي المتعصين المتعالمين على الناس الذين اعتادوا على نسبة المدنيات العالمية إلى شعب أو عدد من الشعوب «المختارة». فالمدنية اليونانية مثلاً كانت مدينة عالية وما كانت تخص اليونان وحدهم فقد ساهمت في تطويرها تجارب كل الأقوام التي احتكت بهم أو خضعت لدولهم . . . وقصارى القول أن الأريين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أدخلوها عن بابل ومصر. وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلل للثقافة للذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى مدنها مع مغانم التجارة والحرب . . .»، حسب تعبير ديورانت في قصة الحضارة.

وبما لا ريب فيه أن لكل مجتمع من مجتمعات المنطقة الواحدة خواصه ومزاياه، إلا أنه ما كان باستطاعة مجتمع بمفرده من هذه المجتمعات أن يطور المدنية وكان لا بد له من أن يتفاعل مع المجتمعات الأخرى في منطقتهم ليتقدم ويساهم في تقدم من هم حوله. وكان المجتمعات روافد تاريخية نبعت من أصقاع وظروف مختلفة، من تلك المشاعرات المنعزلة التي كانت مبعثرة هنا وهناك في الأراضي الصالحة لحياة الانسان البدائي، لتشكل في النتيجة عند التقائها واشتداد ازدهار علاقاتها وتفاعلاتها المتقابلة المجتمع الشامل الذي هو جملة المجتمعات الإنسانية في المنطقة.

وعندما ننظر إلى أبجديات منطقة من المناطق الأنفة الذكر، عندما ننظر مثلاً إلى أبجديات منطقة البحر



الأبيض المتوسط، نجدها تكاد تتطابق بالعدد وباللفظ، في الوقت الذي لا يمكن العثور فيه على ذات الشبه بمقارنتها مع أبجديات شرقي آسيا. كما أن جل كائنات الميثولوجيا لدى أقوام المنطقة الواحدة كادت أن تكون من أسرة واحدة بعلاقاتها وحكاياتها وتطورها. ولا عجب في هذا فأله الوثنية (آلهة طور الرق) تعبر في الواقع عن أكثر النماذج شيوعاً في طبقات السادة قادة مجتمعات طور الرق، وتعبر في تشابهها في مجتمعات هذا الطور ليس فقط عن ازدهار العلاقات بين هذه المجتمعات بل عن قيام جوهر مشترك لعالم موحد أيضاً: عن قيام جملة مجتمعات انسانية واحدة في المنطقة الواحدة تجسد بنظامها العبودي تلك المعتقدات الوثنية. يقول ديورانت في قصة الحضارة: «صار الآلهة في آخر الأمر بشراً، أو بعبارة أوضح أصبح البشر آلهة. ولم تك آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صور عظيمة ولكن من عظام وعضلات ولحم ودم، يجوعون ويأكلون، ويظماؤون ويشربون، ويحبون ويتزوجون، ويكرهون ويقتلون، ويشيخون ويموتون، شأنهم في هذا كشأن آلهة اليونان سواء بسواء.

ثالثاً: إن العهود التاريخية الأولى التي تتالت على المناطق الثلاث الأنفة الذكر هي عهود متشابهة، وإن كان تطور المدنية قد جرى في تلك الأحقاب بشكل مستقل على العموم في كل منطقة من تلك المناطق: كانت المشاعة البدائية في المناطق الثلاث نقطة بدء قيام المجتمعات المعقدة. وقد انحلت تلك المجتمعات البدائية بقيام دول وامبراطوريات الرق التي قامت عليها جمل المجتمعات الانسانية في تلك المناطق. ثم انتهت تلك الجمل الانسانية الثلاث، بنتيجة الالتقاء والتفاعل، إلى تكوين جملة انسانية واحدة لكل العالم في الطور الاسلامي.

كان طور الرق عهد الحجرات الكبرى والتنقل الكثيف للجماعات الانسانية والتفاعلات النشطة بين مختلف الأقوام لقيام بعض الأمم بتشكيلها من مختلف روافدها أو ارساء الأسس لقيام الأمم في الأطوار التالية للجملة الانسانية. فجملة البحر الأبيض المتوسط مثلاً كانت، بحسب تعبير ديورانت في قصة الحضارة: «... تبدوللعين الفاحصة كأنها بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين يأنفون ثم يتفوقون، يُسْتَعْبَدُونَ ثم يُسْتَعْبَدُونَ، يأكلون ويؤكلون، ويقتلون ويقتلون إلى غير نهاية...» وتوسعت المجتمعات بحسب ظروف نشأتها وظروف تطورها «... وأخذت بعض الدول في بحر الأجناس تشكل...». ثم قامت الامبراطوريات الكبرى «... ومن ورائها وحولها خليط من الشعوب البدوية...» وكان هؤلاء البدو طوال تلك الحقب التاريخية يشكلون خطراً على الممالك المستقرة التي كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً. وكان الجذب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية لغزوها...» وكل هذا جاء في قصة الحضارة لديورانت.

وقد كان الانسان، بطبيعة الحال، يزدهر بتقدمه المادي وحضارته في الأصقاع الغنية بمواردها والمعتدلة بأقليمها، الأصقاع التي تسد بيسر متطلبات العيش فيها فتعوضه ما كان يفتقر إليه في تلك الحقب من وسائل وحيلة: مثل منطقة وادي النيل والأهليلج الخصيب وغيره. إلا أن هذه المناطق السهلة ما كانت حينذاك لتستوعب كل البشر، أضف إلى هذا أن الانسان لا يرضى بالغرباء باتون لمشاركته خيرات أرضه. لذلك تضاوتت مناطق الأرض المأهولة بأحوالها وأحوال ساكنيها من البشر الذين كانت كل جماعة منهم مدفوعة إلى التأقلم في معاشها مع ما يحيط بها من ظروف. وكان الاختصاص على الأرض والثروات يصل في العادة إلى

الاقتتال والتفاني بين الجماعات . فإذا أضفنا إلى هذا الأمر ما كانت غالبية البشر تلاقيه من صعاب وأخطار كبيرة (اجتماعية وطبيعية) نجد أن من نجا وخرج من ذلك الممعان الهائل الذي دام كل تلك الدهور الطويلة من التاريخ الانساني قد اكتسب خبرات واسعة وعميقة ومتشعبة .

ويمكننا أن نميز في طور الرق في جملة البحر الأبيض المتوسط فثنتين هامتين من البشر:

الأولى : انسان الحضرة قاطن المدن ومؤسس الدول والامبراطوريات العبودية .

الثانية : إنسان البداوة المتنقل دوماً (بحثاً عن الرزق) في الأصقاع الصحراوية أو الفقيرة بالموارد أو صعبة المناخ (كالصحارى والمناطق الجبلية والسهوب الجليدية فيما وراء القوقاز وقزوين وأوروبا الوسطى والشمالية) . وفي مثل هذه المجتمعات كان الاقتصاد لا يقوم على انتاج الرقيق لتخلف الحرف فيها من جهة ولصعوبة استخدام الرقيق وعدم جدواه في ظروف عدم الاستقرار في مكان واحد وضآلة مردوده وجناه في مجالات انتاج تلك المجتمعات : ربما كانت الفائدة الوحيدة على العموم للرقيق في هذه المجتمعات هي امكان بيعه للمتحضرين فكان يطلب من قبلها كما يطلب الصيد بالغزوات المتعاقبة فيما بينها وبالاحتطاف أو الشراء من قبلها فهو لا يشكل في اقتصادها إلا سلعة بينما هو آلة منتجة في صناعة المدن (لا يبلغ كماله «روبوت» اليابان حالياً) .

ولا يعني هذا التقسيم قيام حاجز يفصل هاتين الفئتين من البشر الواحدة عن الأخرى . فقد كانت بينهما على الدوام علاقات تشدد وتزدهر وتتشعب بمرور الزمن ، فتقوم العلاقات التجارية كما تقع التجاوزات بالغزوات والحروب فيذهب مثلاً أهل الحضرة ، الذين كانوا يشكلون ما يشبه العالم المتقدم اليوم ، عالم الجذب الذي كان يدور حوله أولئك البدو العابرون هنا وهناك بحثاً عن الرزق والمغانم بمختلف الوسائل اللينة أو العنيفة ، فنقول يذهب الحضريون لتأديب البدو أو أن البدو يتجمعون ليقوموا بغزو المناطق المدنية التي كانت كثيراً ما تسقط بأيديهم فيقطنونها وتحولوا بمرور الزمن فيها إلى إنسان متمدن . كما كانت تيارات أخرى معاكسة تتألف من العبيد الأبقين جمعياً مع الأحرار المضطهدين الثائرين على قسوة نظام الرق تخرج من المناطق المدنية لتلحق بعالم البداوة طلباً للحرية في الصحارى والواحات وغيرها من المناطق الصعبة المنال . وسنرى أمثلة هذا الأمر في الهجرات الابراهيمية وخروج موسى بأصحابه من مصر وغيره . ثم أن التخلف المادي للانسان كان يقل بقربه من مناطق الحضارات وتعايشه أزمات طويلة مع تلك الحضارات . فبدو الصحارى العربية مثلاً لا يقارنون من حيث التقدم المادي والروحي بقبائل صحارى الجليل فيما وراء القوقاز وغابات أواسط أوروبا وشمالها التي ظل انسانها دهوراً طويلة في حالة تخلف تزدى بها في البرية والتوحش ، بينما كان الاعرابي لا يقصر على العموم عن ادراك أعلى السويات في الرقي المادي والروحي في خيامه ، وعن الفوص إلى أدق المعاني والأفكار في أدبه .

### جـ - الطور الاسلامي :

ملك الانسان منذ بدايات العصر الاسلامي وسائل وخبرات وأساليب متطورة مكنته من التغلب على الحواجز الجغرافية التي كانت تفصل ما بين مناطق الحضارات الانسانية . فالدولة العربية غطت عملياً منطقة البحر المتوسط المعروفة أعلاه : من اللوار إلى الصين ، وضمت مساحات واسعة من شبه القارة الهندية . وكانت

الأساطيل التجارية العربية تجوب البحار والمحيطات فتصل شرقاً إلى أندونيسيا والفيلين واليابان وسواحل الصين الشرقية، في الوقت الذي كانت فيه القوافل البرية العربية والاسلامية تغزى في أصقاع العالم القديم: من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، من سهول روسيا وأواسط أوروبا إلى أواسط افريقيا وشرقها وغربها، ومن أقصى شرقي آسيا إلى أقصى غرب افريقيا وأوروبا. فانهارت لذلك تلك الحواجز الجغرافية التي كانت تفصل بين جهل المجتمعات الانسانية الثلاث، وأخذت هذه الجمل بالتمتع بالنيشيط فيما بينها لتنتهي إلى الاندماج في النتيجة في جملة عالمية واحدة للمجتمعات الانسانية: «في اسبانيا لم تأت النهضة من الشمال مع الجحافل البربرية وإنما أنت من الجنوب مع الفاتحين العرب. . . لقد كانت حملة حضارية. . . ومن هنا أتت إلينا هذه الثقافة الشابة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة والتي ما تكاد تولد حتى تتفوق. . . بل أنها جلبت معها التقاليد الهندية العظيمة وتراث الفرس وكثيراً من الأمور المكتسبة من بلاد الصين الغامضة. كان الشرق هو الذي يقتحم أوروبا. . .»، وهذا ما نقله غارودي من أقوال بلاسكو ايبانيز في مؤلفه بعنوان «في ظل الكاتدرائية» في محاضراته المنشورة في العدد الأول من مجلة الطليعة المصرية لعام ١٩٧٠.

هنا لا بد من التأكيد على الأمر الهام التالي وهو: أن كل طور من الأطوار الانسانية، من المشاعة حتى الأطوار العليا، هو قبل كل شيء طور في نمو وتكامل الجملة الانسانية بأكملها. فالطور الانساني كما أشرنا إليه أعلاه لا يقتصر على مجتمع واحد أو دولة واحدة من هذه الجملة التي برزت أصولها في الطور المشاعي ثم تكونت مختلف مجتمعاتها المعقدة مع مختلف العلاقات الداخلية لهذه المجتمعات ومختلف الارتباطات فيما بين بعضها بعضاً في طور الرق. وكانت مقسمة، كما مر معنا أعلاه على مناطق البحر الأبيض المتوسط والهند والصين. ثم اتحدت أقسامها هذه في جملة عالمية واحدة في الطورين التاليين: الاسلامي والرأسمالي الخ. . . ثم إن المراحل الطبقيّة في كل عصر من عصورها تتمثل بحضارة مجموعة من الدول الأكثر تقدماً فيها والمهيمنة على الجملة بشكل من الأشكال فتكون هذه الحضارة كما قلنا قبلاً حضارة الجملة في ذلك العصر، أي حضارة عالية. ففي طور الرق مثلاً تعاصرت وتناحرت مدنيات الفراعنة والبابليين والآشوريين والفنيين والفرس. الخ. . . وهيمنت هذه المدنيات في الطور المذكور على جملة منطقة البحر المتوسط بتفاعلاتها المختلفة فيما بينها وتوارثها الواحدة من الأخرى وبمد حدود امبراطورياتها تارة، ونشر تجارتها وثقافتها تارة أخرى. ومن الطبيعي أن لا تكون المجتمعات الطبقيّة في الجملة الانسانية في سوية واحدة من التقدم المادي والروحي: رأينا أعلاه أن البدو كانوا في هذا الطور الذي نحن بصدده يحيطون بالمناطق الحضارية من كل الجهات ويدورون حولها كما تدور التوابيع حول الشمس. ولقد وجدت بقايا علاقات الرق، بل المشاعات البدائية منتشرة هنا وهناك في جملة المجتمعات الرأسمالية، فضلاً عن المجتمعات الحرفية القائمة في كل العالم المتخلف، والموجودة أيضاً في العالم المتقدم، من هذا الطور. ذلك لأن علاقات الانتاج لا يمكنها في النتيجة أن تتجاوز بسويتها سوية تطور وسائل الانتاج المتوفرة بيد المنتجين، حتى لو كان هناك أسلوب ووسائل انتاج، وبالتالي علاقات انتاج، أكثر تطوراً في مكان آخر من الجملة الانسانية ولكن أكثر المجتمعات تقدماً هو الذي يسود في الجملة بسيادة نظامه على كل الأنظمة الأخرى فيحتسبها بشكل من الأشكال المناسبة بحيث تصبح امتداداً له في أصقاعها وقد مر معنا هذا الأمر وقلناه أعلاه. ونصل في النتيجة إلى الأمر التالي البالغ الأهمية:

إن الأنظمة المتخلفة التي كانت تقوم في أوروبا في القرون الوسطى لا تصلح أبداً كمقياس لطور انساني

في تلك الايام في الوقت الذي كان يقوم فيه نظام متقدم جداً في مكان آخر من جملة المجتمعات الانسانية، وهو النظام الاسلامي . أضف إلى هذا أن من المفروض أن نجد في الاقطاع الأوروبي ، فيما لوسلمنا جدلاً فقلنا مع القائلين بأن الأطوار الانسانية المعروفة هي أطوار مجتمعات ودول متفرقة لا رابط بينها بطور عالمي يضمها جميعاً ، وبالتالي فيما لو كان النظام الاقطاعي المذكور هو المتقدم على نظام الرق الذي سبقه في منطقته ذاتها بنظامي اليونان والروم ، نقول أن من المفروض فيما لو وصحت هذه الأمور أن نجد في هذا الاقطاع مجتمعات تفوق برقيها تلك التي كانت قائمة في العهدين اليوناني والرومي ، لا سيما من الناحية الفكرية حصيلة التقدم المادي . ولكننا نجد في الواقع عكس هذا الأمر تماماً عندما نقارن مجتمعات أوروبا القرون الوسطى الغارقة في ظلمات الجهل بأي مجتمع تزدهر فيه المدينة في طور الرق : من قدماء المصريين والبابليين والفينيقيين حتى الروم الذين دمرهم أولئك البرابرة الاقطاعيون .

إن الطور الذي قام بعد طور الرق والذي اشتد فيه تفاعل جملة المجتمعات الانسانية في مناطق الحضارات بشكل لم يسبق له مثيل مما دفع هذه الجمل إلى الاندماج في جملة عالمية واحدة على الكرة الأرضية كان طور التشكيلة العالمية الاسلامية ، بعلاقاتها ونظامها في دار الاسلام ، التشكيلة التي «حيكت ونحاك حولها مؤامرات الصمت المنظمة للغاية» بحسب تعبير السيد غارودي . لقد كانت دار الاسلام «العقد الوسيط» لمختلف مناطق العالم المعروف ، بينما كانت المجتمعات الأوروبية بتشكيلاتها المتخلفة تابعة لهذه الدار اقتصادياً وفكرياً . يقول غارودي في محاضراته المشار إليها آنفاً : « . . إن الفتح العربي خلق بسبب اتساعه الشروط اللازمة لتجديد الحضارة مع انطلاقة شابة جديدة للعالم : لقد خلق الشروط الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الجديدة وذلك بإزالة فرضى الاقطاع وتدرجاته الطفيلية . . إن العامل الحاسم للنصر هو أن الفاتح العربي كان يجلب معه إلى عالم عبودي منحل للغاية أو إلى عالم اقطاعي مقطوع الأوصال منحجر أشكالا راقية من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي تلزم بها الجماهير العريضة لأنها تتفق مع احتياجاتها . . ومن القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر نشأت وازدهرت أغنى وأجمل حضارة خلال العصور الوسطى . وبينما كانت شعوب الشمال (الأوروبية) تتناحر في حروب دينية وتتصرف كالمقاتل الممجبة كان شعب اسبانيا قد وصل إلى ثلاثين مليون . تدفقت فيه اكتشافات جديدة . . وطاقت خلافة . . لقد أطاح الفتح العربي بتأثير البورجوازية التجارية في المدن بالبنية الاجتماعية المستندة إلى عبودية الرق والمتسمة بالجمود والعقم والتي فرضتها السيطرة الرومية ثم السيطرة البيزنطية . يقول جان بيرين : إن الفتح العربي قد سبب انتعاشاً حقيقياً للاقتصاد العالمي . . فأضاف إلى سمو العلاقات الاقتصادية والاجتماعية لحضارة تجارية في مواجهة مجتمعات عبودية واقطاعية سمواً أخلاقياً يدور على الساحة ، وسمواً عقلياً يدور على روح نقدية في مواجهة تعصب استبدادي ودغماطيقي . ولهذا ارتأى انجلز رفيق ماركس أن المفكرين العرب هم السلف البعيد للانسكلوبيديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر . وفي كتابه «ديالكتيك» يقول في حديثه عن عصر النهضة : أن لدى الشعوب الرومية فكراً متحرراً صافياً مأخوذاً عن العرب ومطعماً بالفلسفة اليونانية التي اكتشفت مؤخراً . ثم راح الفكر يتأصل رويداً رويداً ويمهد لظهور مادية القرن الثامن عشر . . . انتهى قول غارودي .

كان ما يميز الأساس الاقتصادي للطور الاسلامي ليست إذن علاقات الانتاج الاقطاعية السائدة في أوروبا المتخلفة حينذاك وإنما الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة . فالحرفة بتقدم الوسائل كانت تتحرر من يد

الرقيق ليسارسها الأحرار أكثر فأكثر منذ العهود الأخيرة لطور الرق وخلال مرحلة الانتقال الطويلة إلى الطور الاسلامي . وقد حطم النظام الاسلامي وأزال قيود أنظمة الرق وحواجزها فانتسعت في طوره قسمة العمل الحرفي اتساعاً هائلاً، وازدهرت بالتالي حينذاك الحرف والتجارة في كل العالم، سيما منه الذي كان يطلق عليه اسم دار الاسلام ، مما انتهى في النتيجة إلى ظهور المانيفاتورة ثم قيام الطور الرأسمالي (بمكثنة الانتاج) . نقول إذا أن قطاعات الانتاج الحرفي القائمة على الأيدي العاملة الحرة اتسعت في كل الاتجاهات في هذا الطور الاسلامي حتى بلغت قصور الأمراء . وقد ورد في عصر المأمون للدكتور أحمد فريد الرفاعي القصة التالية : «حدث الوضين بن عطاء وقال : استزارني أبو جعفر المنصور، وكانت بيني وبينه خلافة قبل الخلافة . فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوماً فقال لي : يا أبا عبدالله ، ما مالك ؟ فقلت : الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين . قال وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم هن . فقال لي : اربع في بيتك ؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردد ذلك علي حتى ظننت أنه سيمولني . قال : ثم رفع رأسه إلي فقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن في بيتك . . . » . ونلاحظ هنا أن الخليفة المنصور لم يعد الخادم بين المنتجات الحرفيات ، وإنما عد البنات وأمهن الأمر الذي يدل على انحسار دور العبيد والخدم في عملية الانتاج واتساع اليد الحرة في هذه العملية .

إن الذي هيا لتقنية المانيفاتورة ليس الاقطاع الأوروبي المتخلف، وإنما الممارسات الطويلة للتجار والحرفيين الأحرار العرب . فمزابل الاقطاعيين «على دفتها» لا تصلح أبداً لاحتضان «بيضة الرأسمالية» ، لا حتضان المانيفاتورة، وإن صلحت لاحتضان الآراء البليدة المتعصبة العمياء التي لم يفتحها النور الذي سطع دوماً في هذا الشرق المقهور حالياً . إن اقتصاد الاقطاع الأوروبي في القرون الوسطى الذي كانت فيه الأسرة تستهلك ما تنتجه من قيم استعمال فجدة ليس فيها أي أثر من آثار الابداع ، هذا الاقتصاد الأسن الذي لم تحركه ولم تطهره تيارات الأسواق التجارية النشطة ، لا يملك أية قاعدة تصلح لبروز المانيفاتورة . وما كان صدفة إن برزت هذه الأخيرة، أول ما برزت في أوروبا، على سواحل البحر الأبيض المتوسط في جنوه والبنديقية ، في المدن التجارية ، التي كانت على صلة عضوية بالعالم الاسلامي ، عالم الحرف المتقدمة والتجارة النشطة المزدهرة، فكانت جزءاً اقتصادياً لا يتجزأ منه بحكم ازدهار علاقاتها معه . ونجد أيضاً في أيامنا هذه أن الثورات الطامعة إلى بناء الأسس المادية الاعدادية لدخول عصر الاشتراكية العالمي المقبل، ثورات التحرر على العموم في العالم المتخلف، لا تقوم على أساس العلاقات المتخلفة في اقتصاد هذه المناطق ، بل تقوم على أساس ارتباطها بالعالم المتقدم مادياً، الارتباط الذي يسبب قيام مؤسسات اقتصادية متقدمة مناسبة فيها . والخلاصة، أن هذا الطور لجملة المجتمعات الانسانية الذي اصططح خطأ على تسميته طور الاقطاع وعلى نسبته إلى غير أهله، إلى الأوروبيين، كان في الواقع طور الاسلام القائم على الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة . وقد امتد فيه الأسلوب الحرفي إلى الريف فكان الانتاج الزراعي يقوم على هذا الأسلوب، كما هو الحال في عصرنا عندما امتدت المكثنة الرأسمالية إلى الريف كان الفلاح وأسرته ومن يستأجرهم في بعض الحالات يقومون بزراعة الأرض بأدوات حرفية وأسلوب حرفي، ويجنون المحصول الذي كان يسلم إلى التاجر صاحب الخان أو يعرض في السوق مباشرة من قبل الفلاح، تماماً كأبي حرفي حريقوم وعائلته وصناعه بانتاج قيم الاستعمال ليسلمها إلى التاجر في النتيجة كبضاعة معدة للسوق . وهذا لا يتناقى مع ظهور الملكيات الزراعية الكبيرة في ذلك العصر، كما لا تتناقى هذه الملكيات الزراعية الكبيرة مع أسلوب الانتاج الرأسمالي في عصرنا

الحالي حيث يتضمن هذا الأسلوب بشكل مباشر أو غير مباشر في البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة كل شكل من أشكال الانتاج الزراعية وغير الزراعية. فأسلوب الانتاج الاسلامي يبقى إذن في تلك الملكيات الكبيرة أسلوباً حرفياً حراً أو محتوى بالأسلوب الحر في الحر، مفتوحاً على الأسواق وليس مغلقاً على نفسه كما هو الحال في الانطاعيات، والأيدي العاملة فيه هي أيدي فلاحية حرفية حرة أو محررة (الموالي) تنتج على أساس المحاصصة بينها وبين صاحب الأرض أو التاجر صاحب الخان الذي يمول المشروع، كما يمول المشاريع الحرفية الأخرى غير الزراعية، بالفروض النقدية أو العينية، كالبذار وغيره من لوازم الزراعة.

وكانت الطبقة الحاكمة الاسلامية من التجار أو ممن يستند على هذه الطبقة: كان قادة الفتح العربي مشألاً هم بذاتهم الذين كانوا من قبل يقودون لقريش قوافلها التجارية، كما كانت السلالات الحاكمة للدول العربية في دار الاسلام من أبناء وأحفاد أولئك التجار في غالب الأحيان. ثم أن الاقطاع كان وما يزال أبداً يقوم على علاقات اجتماعية متخلفة في كل الأطوار الانسانية. فاقطاع أوروبا ما كان في الواقع إلا مظهراً من مظاهر تدهور وتفسخ طور الرق هناك، كما أن العلاقات الاقطاعية وجدت وتوجد في المجتمعات المتخلفة في الطور الرأسمالي العالمي، وقد استفحل الاقطاع في الدول الاسلامية في طور انحطاط النظام الاسلامي العالمي: في أعقاب غزوات الصليبيين والتر لدار الاسلام، ونتيجة لتفسخ نظام الخلافة بالتناحر والفتن، انهيار تماسك دار الاسلام ونظامها العالمي تماماً كما انهارت الامبراطورية الرومية تحت ضربات قبائل الجرمن ونتيجة تفسخ نظامها، فقامت في الحالتين أنظمة اقطاعية متخلفة. ويجب أن لا يغرب عن البال أن الانتاج الزراعي في كل مجتمع، في أي طور من أطوار الانسانية، لا يشكل إلا جزءاً، إلا قطعاً، من مجمل انتاج المجتمع. وفي كل الأنظمة الاقتصادية، الحرفية والرأسمالية، يكون مركز ثقل الانتاج وقواعد انطلاقه في سبل التقدم في القطاعات الصناعية، الممكنة أو غير الممكنة، حيث تنتج وسائل الانتاج لكل القطاعات المنتجة بدون استثناء مع القيم الأخرى المتممة على أساس من المعارف والمهارات هي حصيلة التقدم الانساني. ثم أنه يجب الانتباه إلى الأمر الهام التالي وهو أن الاقطاع يقرب عادة بالزراعة بسبب أن معظم رعاياه هم من الفلاحين. والواقع أن التخلف الاقطاعي يصيب كل قطاعات الاقتصاد في المجتمع الذي تضمر فيه الأسواق عندئذ ويسود فيه الاقتصاد الطبيعي حيث يعول الانسان في استهلاكه على الانتاج العائلي فيترجع الانتاج الاجتماعي في الصناعة والزراعة، ويغيب فيه كل ما يقوم على وسائل وأنظمة متقدمة معقدة، وبالتالي تغيب الصناعة بكل فروعها تقريباً ولا يبقى منها إلا التفاه المتخلف. أما الزراعة المتخلفة فإنها تكون الغالبة عندئذ لبقاء الأرض وامكان استغلالها بالوسائل البسيطة. لكل هذا نجد أنه لا يبنى على العلاقات الاقطاعية أي طور عالمي، وإنما يبنى عليها في كل الأطوار والعصور تخلف المجتمع ومهيجته.

قلنا أن الأطوار الانسانية من المشاعة حتى الأطوار العليا ما هي إلا مراحل نمو وتكامل ذلك الكائن الذي سميناه جملة المجتمعات الانسانية. ونجد أن التجار العرب قد جاسوا عملياً كل العالم القديم بسلع حرفية العالم المتقدم حينذاك، حرفية البحر الأبيض المتوسط والهند والصين. فكانت النتيجة أن تحطمت تلك الحواجز الجغرافية التي كانت تقسم العالم إلى مناطقه الثلاث المار ذكرها. وقد أقام الاسلام الأسس التالية لوحدة العالم القديم، قبل الكشف عن القارة الأمريكية:

- أقام عقداً وسيطاً للعالم هو دار الاسلام التي ساد فيها نظام الخلافة الاسلامية.

- أقام شبكات دائمة من الاتصالات التجارية بخطوط القوافل البرية والبحرية تغطي العالم القديم .  
- إن مختلف العلاقات السياسية والاقتصادية التي ربطت دار الاسلام بالدول الأخرى في العالم المعروف حينذاك كانت تقوم على قوانين المعاملات المحددة بالشرع الاسلامي . ذلك لأن دول العالم كانت مدعوة لقبول هذا الأساس في علاقاتها مع دار الخلافة بسبب قيام هذه الأخيرة بدور الوسيط العالمي حينذاك . الأمر الذي أتاح للعالم أن يرتبط بعلاقات دولية تقوم على أساس موحد ومستمر، وأن يخضع لنظام تجاري شامل يقوم على شريعة انسانية واحدة هي فقه المعاملات الاسلامي . ولقد ازدهرت الاجتهادات الفقهية واتسعت آفاقها إلى حدود لم تعرف من قبل أبداً، كما لم يعرف لها مثيل في شمولها واستقصائها وعمق انسانيتها من بعد أبداً . وكان هذا لأنها ما دارت حول مواضيع عملية ضيقة وما صدرت من أبراج عاجية، وإنما كانت تتناول بمعالجاتها الانسان بكل أجناسه، وتنظر إلى مسيرته بكليتها من تراب الأرض إلى جنان السماء، وهي على كل حال تناولت مسائل تتعلق بدار تشكل عقداً وسيطاً ترتبط به كل دول العالم ومجتمعاته التي شاهدت بهذا الأمر لأول مرة شريعة موحدة معترف بها قانونياً وواقعياً من قبل العالم كله . وأن الاسلام قد امتد إلى أصقاع بعيدة في العالم القديم، امتد مثلاً إلى كل افريقيا كما امتد إلى أندونيسيا والملايو والفيلبين والصين بقوة ازدهار العلاقات الألفية الذكر وليس بقوة الفتح .

وقد سبق التطور الاسلامي مرحلة اعدادية، مرحلة انتقال، استمرت قرناً طويلة قامت فيها ثورات عديدة ضد نظام الرق كان من أبرزها وأشدها تأثيراً ثورات التوحيد، كما تطورت أثناءها وسائل الانتاج الذي مال ثقله أكثر فأكثر نحو انتاج الأحرار في الوقت الذي تنسخ فيه نظام الرق . وكان الاسلام، كما قلنا أعلاه، آخر حلقة في سلسلة ثورات التوحيد التي قامت جميعها لاسقاط عالم الأسياد والتعالي على الناس وذلك بدءاً من الكشف عن كذب وسخافة الوثنية التي تعمل دوماً على غرس ورعاية مفاهيم شوهاء جامدة تمهيداً لقسر الناس على قبول واقع مشوه يتجمد عند مصالح الأسياد على حساب سواد الناس .

#### د - التطور الرأسمالي :

ما كانت الرأسمالية نقيضة الاقطاع وإنما كانت نقيضة النظام الاسلامي وضربة في أضعف حلقات هذا النظام العالمي، في أوروبا الغارقة في انحرافها الوثني عن التوحيد المسيحي، وردة مشؤومة إلى أفنطع عبودية عاناها البشر: لقد حمل دعاة الاسلام أعباء دعوتهم لتحرير الانسان، أما رواد الرأسمالية فقد بدأوا بإبادة الهنود الحمر واغتصاب أوطانهم، وهم ما يزالون على هذه السجية حتى أيامنا هذه .

وقامت المؤسسات الأولى للنظام الرأسمالي، قامت المانيفاتورة كما قلنا أعلاه، في ايطاليا المطللة على المشرق حيث تقوم المنطقة المتقدمة من عالم الحرفة الحرة حينذاك، ثم امتد تيار هذا الأسلوب الجديد في اتجاه المقاومة الأقل له من ذلك العالم، في اتجاه أوروبا المتخلفة في تلك الأيام . وعندما كانت الرأسمالية، أثناء هذا السير، تمصطدم بالعقبات المحلية، بالتخلف الأوروبي الاقطاعي، فإنها كانت في جوهر هذا التناقض الظاهري تناضل ضد نقيضها الحقيقي القائم في العالم المتقدم حينذاك : ضد الحرفة الحرة المزدهرة في بغداد ودمشق وغرناطة وسمرقند . ثم أن رحلات البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين للبحث عن طريق الهند ما كانت للتخلص من هيمنة الجهل والجمود المنتشرين بين اقطاعيي أوروبا، ما كانت تهدف بشكل خاص لنقض أو هام الجهال الرجعيين المثبطين بوجود الجحيم فيها وراء أفق المحيط، بل كانت حرباً لازالة سيطرة

العرب والمسلمين على الطرق التاريخية للتجارة العالمية .

كان قيام الأسلوب الرأسمالي إذن ثورة تقنية في جملة المجتمعات الانسانية ضد أسلوب الحرفة الحرة وعلى النظام العالمي للتجارة المروّجة لهذا الأسلوب، وإن وقعت النتائج المادية الايجابية لهذه الثورة بأيدي برايرة أعداء للانسان فحرفوا نفعها إلى قهر البشر وإبادتهم، تماماً كما حرف برايرة الرق فوائدها تقدم آلة الحرفة المشاعية إلى استعباد الانسان باسترقاقه. وقد مهد إلى الثورة الأنفة الذكر الدمار الشامل الذي أصاب مناطق المدنية والتقدم في جملة المجتمعات حينذاك، الدمار الذي كانت بابوية روما وراءه تحرض عليه :

- بالغزوات الصليبية .

- بالاجتياح المغولي المدعرا لواسط آسيا الاسلامية والعراق وسورية والصين والهند .

- بتفسيخ الدول الاسلامية وقيام الحروب الأذلية فيها بينها .

وإذا كان من نتيجة الغزوات الصليبية احتكاك الأوربيين مباشرة مع المدنية في المشرق العربي طوال قرنين من الزمان، وبالتالي نقلهم ما اقتبسوه إلى أوطانهم مما ساهم مساهمة حاسمة في إقامة الأسس المادية للثورة الصناعية الرأسمالية، فإن الاجتياح المغولي لم ينتج إلا التخلف بعد أن زرع الدمار في العالم .

وابتدأت مرحلة الانتقال إلى أسلوب الانتاج الرأسمالي الذي مر بدوره بالمراحل التالية :

## ١ - التعاون الرأسمالي البسيط :

تطور الانتاج الحرفي الحروا زدهر حتى بلغ أعلى قمم الكمال والفن في العصر الاسلامي . وانتقل بطبيعة الحال إلى أوروبا حيث أخذ هناك في النتيجة شكلاً جديداً هو أسلوب التعاون الرأسمالي البسيط . ففي هذا النمط من الانتاج يقوم التاجر الممول بجمع الشغيلة المأجورين في مكان واحد ليقوموا جميعهم بعمل من نوع واحد، ليتنجوا سلعة واحدة . وكان هذا الاسلوب الانتقالي يحقق وفراً في الكلفة ومزيداً من المرود في العمل بالنسبة إلى الأسلوب الذي سبقه والذي كان شائعاً في المشرق عندما كان التاجر يشغل الحرفيين في بيوتهم بعد أن يوفر لهم المواد الأولية، بينما يتكفلون هم بباقي وسائل الانتاج : الأدوات ومكان العمل وغيره، فيكونون بهذا بوضوح يسمح لهم بحرية أوسع تجاه التاجر الذي يتعامل معهم . أما التعاون الرأسمالي البسيط فإنه كان يحمل الكثير من عبودية الرق، بإلزام الشغيلة بأوقات ووثائق وأمكنة عمل يحددها التاجر صاحب العمل، كما كان يهيء للعبودية الرأسمالية بتعطيل قانون تكافؤ الفرص باختكار أحد ركني قوة العمل، باختكار وسائل الانتاج من قبل صاحب رأس المال التاجر . وقد نسخ هذا الأسلوب عن مثيل له كان سائداً في العهد الرومي، إلا أن الشغيلة كانوا في ذلك العهد من الأرقاء الذين يجمعهم السيد في مشغل مخصص لغرض الانتاج ومناسب له كانوا يطلقون عليه اسم قيصرية تشبهاً بالمشاغل التي كانت تقيمها الدولة الرومية لمختلف الأغراض . وقد قلدت البابوية هذا الأسلوب عندما كانت تشن الحروب الصليبية على دار الاسلام في المشرق والمغرب بإقامة الأديرة التي تجمع الأعداد الكبيرة من الرهبان والراهبات الذين كانوا يعملون جماعياً في مختلف فروع الانتاج الزراعية وغير الزراعية مقابل لقمة الخبز فقط وبركات أمراء الكنيسة ولمصلحة هؤلاء الأمراء وليس لمصلحة التوحيد وخلص الانسان كما كان قرره الرسل تلامذة السيد المسيح عندما أسسوا كنيسته العالمية .



## ٢ - المانيقاتورة :

إن الخطوات التي تلت أسلوب التعاون البسيط المذكور كانت المانيقاتورة حيث يقسم العمل الواحد إلى عناصر أكثر بساطة ينجز كل واحد منها عامل مختص . وقد قامت على هذا الأسلوب المرحلة الأولى من التطور الرأسمالي ، مرحلة الامبراطوريات التجارية الرأسمالية : البرتغالية ، والاسبانية ، والهولندية ، والانجليزية ، والفرنسية ، في الهند وأمريكا وأفريقيا . وفي هذه المرحلة قامت الثورة البورجوازية في إنجلترا بقيادة كرومويل ، كما قامت الاصلاحات البورجوازية على يد الكردينال ريشليويو يد خليفته مازاران في فرنسا . وكانت قد سبقت تلك الثورات حركات فكرية ثورية موجهة ضد التبعية الجامدة لكل ما هو قديم : الحركة البروتستانتية ضد الكنيسة الكاثوليكية مثلاً . وقد استهدفت الاصلاحات الثورية إزالة العوائق القطاعية أمام تقدم الأسلوب والسوق الرأسمالين ، وازغام الأمراء القطاعيين على الانسجام مع متطلبات العصر الجديد . كان تقسيم العمل الواحد إلى عناصر بسيطة متسلسلة بأسلوب المانيقاتورة مكن أولاً من انجاز العمل الكلي بطريقة التسلسل من قبل عدد مناسب من العمال يختص كل واحد منهم بخصر واحد من عناصر العمل المذكورة ، ثم مكن في النتيجة من مكنته تلك العناصر البسيطة للعمل الكلي .

## ٣ - عصر البخار :

تم في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر في إنجلترا اتقان المحرك البخاري ليعمل في كل الظروف . وقامت الثورة الفرنسية وتبعها الحروب النابوليونية التي عمت أوروبا كلها وقضت على ما بقي من الخواجز القطاعية التي يمكن أن تقف أمام تقدم وتوسع الأسلوب الرأسمالي . وكان استعمال «محرك» ، كالمحرك البخاري ، لا يرتبط بمكان محدد أو ظرف معين كالمحرك المائي مثلاً المرتبط بمجري الأنهار ، والمحرك الهوائي الذي لا يعمل إلا عند هبوب الهواء ، قد وفر للانسان قوة محرك مستقلة يستخدمها في أي مكان يناسبه : إقامة معمل مثلاً قرب مصادر الموارد الأولية للنتاج المطلوب وفي مكان يوفر اليد العاملة المناسبة . ونتيجة لهذا الأمر خطت الصناعة خطوات عملاقة في كل فروعها ، لا سيما منها في قطاعات انتاج المكائن لمختلف الأغراض . وظهرت وتعددت الأفران العالية لصهر المعادن ، وعلى الأخص صهر الحديد وانتاج الفولاذ . وتطورت قطاعات التعدين وتوفير المواد الأولية للصناعة . وانتشرت الخطوط الحديدية وشبكاتها في البلاد الصناعية المتقدمة ، كما تطورت وسائل النقل البخارية عبر المحيطات وعلى الأنهار ، الأمر الذي حقق قفزات عملاقة في مجالات التجارة والسياحة العالميتين ، وعزز من وحدة جملة المجتمعات الانسانية بتقريب مجتمعاتها ومختلف فئاتها الانسانية أكثر فأكثر بعضها من بعضها الآخر . والخلاصة أن عصر البخار ، الذي قام وازدهر خلال القرن المنقضي بين الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ميلادي والثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، كان عصر مكنته الانتاج .

## ٤ - الشركات الاحتكارية :

أنت مرحلة الاحتكار الرأسمالي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كما هو مبين في البحث الشهير للينين : الامريالية المرحلة العليا للرأسمالية . وقد قام في هذه المرحلة عصر الكهرباء والنفط والمحركات

الكهربائية والانفجارية. إلا أن الاحتكار لا يخصص فقط هذا العصر، وإنما عرف منذ أقدم عصور التاريخ، منذ عرف الإنسان الامبراطوريات لأنه يشكل أساسها المادي. ففي المراحل السابقة للرأسمالية كانت المانيفاتورة كآلة البخارية حكراً للمنطقة الأوروبية دون سائر أنحاء العالم، وهذا على الرغم من قيام التنافس «الحر» بين مختلف المنتجين في أوروبا. إذ أن هذا التنافس كان تنافساً داخلياً في منطقة الإنتاج الرأسمالي المتقدم الذي كان بمجموعه حكراً لهذه المنطقة بالنسبة لبقية العالم. والتنافس أمراً لا بد منه في الطبقة السائدة من كل مجتمع طبقي لاقتسام فضل القيمة الكلية الحاصل في هذا المجتمع، وهو يؤدي دوماً إلى تراكم المال في أيدي أسر محدودة العدد حتى يصل إلى الشكل الاحتكاري بتراكمه. وكان هذا ما يحدث في أوروبا في العصور الأولى للرأسمالية عند قيام امبراطورياتها حينذاك فأسرة ميديشي في فلورنسا مثلاً كانت تملك ثروة ضخمة وتشرف على مجالات واسعة ومتنوعة في عالمي الاقتصاد والسياسة. ونقرأ في مجلة المعرفة، عدد ٩٣ عربي، ما يلي «... أصبحت أسرة ميديشي خلال القرن الخامس عشر أهم مصدر تمويل في أوروبا. وكانت تستخدم النقود في الحصول على السلطة السياسية، وكان لها تأثير كبير على مجريات التاريخ في زمن الصراعات بين لويس الحادي عشر في فرنسا، وأدوار الرابع في إنجلترا، وشارل الشجاع في بورغونديا. وقد ذاع صيت مصرفي فلورنسا في كل أوروبا. وكثيراً ما سدّدوا النقص في خزانة من افتقر من الأمراء وقاموا بتقديم كل أنواع تسهيلات تبادل النقود. وكانت لهم فروع في كل أوروبا. وعلى نفس القدر من الأهمية كانت أيضاً أسرة فوجر في اوغسبرغ، التي أقرضت في القرن السادس عشر مبالغ ضخمة إلى الامبراطور شارل الخامس. وفي الواقع، فإنه دون مساعدة أسرة فوجر، لم يكن من المحتمل على الإطلاق أن ينتخب شارل امبراطوراً رومياً مقدساً... وقد مولت أكثر حروبه عن طريق هذه الأسرة...».

ويرتكز الاحتكار في كل مرحلة من الأطوار التطبيقية لجملة المجتمعات الانسانية على أساس مادي مناسب، إلا أنه يشكل دوماً نهاية المرحلة التي يقوم فيها لأنه يشكل أعلى أوجهها المادية. فبلوغه لا بد من أن يكون خلال زمن مناسب من المرحلة القائمة تنهياً فيه أسسه المادية عبر تنافس عدد كبير من المتنافسين الصغار في قطاعه الاقتصادي، ومع التقدم في الوسائل والأساليب. وعند قيامه يصبح التنافس والتناحر بين قوى مادية عملاقة تسمى كل منها إلى التغلب على خصومها بالعمل بما لديها من امكانيات مادية كبيرة على تطوير وسائلها وعلى الركض لوضع اليد على منابع القيم والثروات بكل الوسائل التي من أولها بناء الامبراطوريات واستعباد الأمم بعد اخضاع واستعباد شعب الوطن الأم. والاحتكاريون عندما يتسابقون في تطوير وسائلهم أثناء تنافسهم وتصارعهم مع قيامهم باستعباد الشعوب وبالتالي معاداتها فإنهم في ذات الوقت يسلكون الطريق المؤدي إلى نهاية مرحلتهم التي قد تكون آخر مرحلة في طورهم القائم في الجملة الانسانية. فنظامهم، ككل نظام مادي لا بد من أن يصل إلى نهاية لوجوده عبر كل الأحداث التي يقوم عليها هذا الوجود بالذات، عبر حياته التي توصله إلى نهايته المحتومة: أحداث الحياة هي أيضاً خطوات نحو النهاية.

وقام الاحتكار الرأسمالي في أعقاب مرحلة التنافس الحريين المنتجين الرأسماليين أصحاب المعامل والورشات الصغيرة عندما بلغ التقدم في الوسائل والأساليب في قطاعات الانتاج الحاسمة في البلاد الصناعية القوية حدّاً من الاتساع والتعميق بحيث أصبح الثبات في التنافس غير ممكن إلا للقلّة القادرة من المنتجين الذين أخذ تراكم القيم في حوزتهم بالتفان مع اشتداد تمركز السطوة الاقتصادية بين أيديهم. وكانت الظاهرة

الأساسية فيه امتزاج رأس المال النقدي المصري برأس المال الصناعي ، كما كانت نتائجه في جملة المجتمعات الإنسانية اقتسام العالم من قبل المستعمرين وظهور الامبراطوريات الرأسمالية الاحتكارية الكبرى : إن الملكيات الأساسية في المجتمع تجردت من أشكالها المختلفة التي تتجسد بها وأخذت الشكل المعنوي الموحد للقيمة الذي تعبر عنه الأسهم التي هي بدورها عملياً شكل من أشكال النقد . وتوزعت القيم بهذا الشكل على الشركات الاحتكارية المساهمة التي تتداخل ملكياتها فنجد المساهم الواحد في عدد من الشركات ، كما نجد في الشركة الواحدة العديد من المساهمين ، ولكن الإدارة في كل هذه الشركات تكون لعدد محدود من الطغمة الاحتكارية ولصالحها .

وقد تميز قيام عصر الاحتكار ببلوغ البحوث والمنجزات في مختلف فروع العلم والتكنولوجيا سوياً رفيعة أخذ معها التقدم المادي شكل ثورة علمية صناعية . فظهرت حينذاك مثلاً أول المحركات الانفجارية ومحركات الديزل التي تعمل بالنفط . كما صنعت النماذج الأولى للطائرات . وأخذ استعمال الكهرباء يتعمم في البلاد المتقدمة نتيجة التطور في بناء السدود على الأنهار وفي تحويل الطاقة الحرارية للفحم الحجري إلى طاقة كهربائية ، وصنعت مختلف المكونات الدقيقة في مختلف فروع الانتاج الصناعي نتيجة للتقدم الواسع في بحوث الميكانيك الخ . . أما في المجالات النظرية فقد وقعت اكتشافات حاسمة في المجالات الكهربائية والفيزياء الذرية والكيمياء النظرية والتطبيقية وفي بحوث نشوء وارتقاء المادة الحية الخ . . وكان هذا يقوم إلى جانب التقدم الكبير للفكر الإنساني في علوم الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والأدب والفن مع توطد الفكر الاشتراكي العلمي كحصيله لتقدم الفكر الإنساني حينذاك .

إن جملة المجتمعات الإنسانية الطبقة تصف بنمو مجتمعاتها نمواً غير متساو ، متغير الوتيرة من زمن إلى آخر ، غير مقيد بنظام متناسق فتعمل به الصدفة تارة في اتجاه وأخرى في اتجاه آخر . فما رأيناه مثلاً قبل هنيهة من تقدم مادي وفكري كان فقط في بعض المجتمعات الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، أما بقية العالم فكان غارقاً في الفقر والجهل والجوع . فإذا أضفنا إلى هذا الأمر ما يحدث في هذه الجملة من تناقضات ومشاحنات وصراعات لا سيما في مرحلتها الاحتكارية الرأسمالية نجد أن توازنها أثناء تقدمها التاريخي هو توازن غير مستقر . فتقع فيها الأزمات من حين إلى آخر ، في هذه الجهة منها أو تلك . وقد تكون الأزمة فيها عامة تكتنفها كلها . والأزمة تعني : أن نوعاً أو عدداً من أنواع العلاقات بين مجتمعين أو أكثر ، أو داخل مجتمع ما ، أصبح بحكم تغير الواقع المادي غير صالح للاستمرار ولا بد من تعديله أو تغييره لتجاوز الأزمة . وعندما لا تستطيع الدبلوماسية أو الإدارة بوسائلها «الناعمة» (المدعومة طبعاً بنزاع العنف المستعد للتدخل) أن تصل إلى حل مناسب ، فإن الأزمة تستفحل وينفجر الصراع المسلح : الحرب بين الضواري ، أو الثورة على الضواري ، ذلك الصراع الذي يجب أن يغير في العلاقات القائمة ، الجملة (أو في جزء منها) لتقوم أخرى أكثر ملاءمة للواقع .

إن الجملة الإنسانية عندما قام النظام الرأسمالي الاحتكاري في أواخر القرن الماضي فقدت توازنها وتفاقت تناقضاتها واستفحلت عندما تم اقتسام العالم بين الاحتكاريين : من جهة حصل بعض الضواري (الانجليز والفرنسيون والأمريكان) على معظم الغنائم الاستعمارية ، بينما لم يحصل بعضهم الآخر (الألمان) على شيء من الناحية العملية . وكان القهر الاستعماري ، من جهة أخرى ، يسحق الإنسان في كل أنحاء

الجملة الانسانية تحت ثقله الرهيب . وكانت هذه الأمور تقع في ظروف تقدم علمي وتكنولوجي عاصف يدعو بشدة إلى تجميع قدرات الانسان في مجاميع متعاونة متناسقة، متكامل وتكافل ، وليس في مسخ واجهاض هذا المطلب الملح الذي ناضل من أجله رواد الاشتراكية والمناضلون الاجتماعيون عندما نادوا بإسقاط التنافس الحر الرأسمالي وإقامة تجمعات انسانية تعاونية في الانتاج . وكانت النتيجة أن أتى عتاة الرأسمالية باحتكاراتهم التي يتصرف بها أفراد قلائل منهم ويسيرونها حسب مصالحهم وأهوائهم . فقامت لهذا أحوال في الجملة الانسانية استحالت معها دوام العلاقات القديمة وانفجرت الحرب العالمية الأولى التي كان من نتائجها خروج روسيا مع مستعمراتها من النظام الرأسمالي ، وهي تشكل بمساحتها سدس اليابسة على الكرة الأرضية . وقد حاول المستعمرون استرجاعها إلى نظامهم فهزموا أمام ثورتها . وبدأت بهذا الأمر مرحلة انتقال الجملة الانسانية إلى الطور الأعلى : طور الاشتراكية السائدة عالمياً ، طور التعاون والتكامل والتكافل للمجتمعات الانسانية وللانسان في كل مجتمع .

### هـ - مرحلة الانتقال إلى الطور الاشتراكي :

استمر المستعمرون في أعقاب الحرب العالمية الأولى في اقتسام ما بقي لهم من العالم ، بعد انسلاخ روسيا ومستعمراتها عن نظامهم الرأسمالي ، وفي ممارسة قهر الشعوب مع تصعيدهم التناحر فيما بين بعضهم بعضاً . وكان أن تفاقمت أزمة نظامهم في الجملة الانسانية بدلاً من أن تشفى ولإولى حين بتلك الحرب العالمية الأولى . وهذا يدل دلالة واضحة على أن نظامهم كمبرياليات احتكارية رأسمالية تقسم جزءاً كبيراً من العالم فيما بينها وتتناحر إلى حد الاقتتال والتفاني ، هذا النظام المتخلف لا يتجاوب أبداً مع واقع الجملة الانسانية المادي والروحي ، وبالتالي لا يصلح للبقاء فيها . وبنتيجة تفاقم الأزمة العامة للجملة الانسانية المبتلاة بهذا النظام الممجي اندلعت الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى ازدياد الخارجين على الرأسمالية الاحتكارية وقيام معسكر متسع الأرجاء قوي من الدول التي ألغت ملكية وسائل الانتاج الحاسمة وأتمتها وهي دول اشتراكيات مرحلة الانتقال إلى طور الاشتراكية المطلقة السيادة عالمياً . وقام إلى جانب هذا الأمر عالم يهدر بالثورات ضد كل أنواع القهر والعبودية ، عالم المستعمرات وأشباه المستعمرات . في هذه الظروف «أطلت» الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الرأسمالي لتتقدمه من الزوال . وكان الحل الذي رآه الامبرياليون الأمريكيين أيضاً مسخ الحرية الحقيقية للأمم والمجتمعات الانسانية بالغناء العبودية الرأسمالية ، التي سببت الكوارث والدمار للانسان ، وإقامة نظام التعاون والتكامل والتكافل في ظل سريان قانون تكافؤ الفرص أمام الجميع ، أفراداً وجماعات ومجتمعات ، نقول كان الحل الأمريكي هو العمل على تحقيق «تعاون وتكامل وتكافل» المستعمرين وقوى الرجعية الأخرى من كل الأشكال في كل مكان في العالم ، وذلك بإقامة امبراطورية عالمية متعددة الرؤوس موحدة بزعامتهم تحمل محل تلك الامبراطوريات الاستعمارية القديمة المتناحرة والمتحاربة طوال تاريخها المخزي . وهذا الاستعمار الجديد يضع نظاماً يخضع له العالم الرأسمالي بأجمعه ، متقدمه ومتخلفه ، ويتناقص بموجبه استقلال الدول تجاه المستعمرين ، لا سيما منهم زعماءهم احتكاريو الولايات المتحدة الأمريكية ، بمقدار اشتداد تخلفها وضعفها . الأمر الذي يشبه شهاباً تماماً نظام الشركة الاحتكارية التي تهيبط فيها قوة المساهم في الدفاع عن حقه في الانتفاع من الشركة بمقدار هبوط حصته في الأسهم بينما يحقق المساهمون الكبار

(الأقوياء) أرباحاً تفوق بكثير ما تستحقه أسهمهم بالإضافة إلى استفادتهم من القوة الكبيرة الحاصلة من اجتماع أسهم المساهمين كلها بقضتهم . ولكن الحل الأمريكي لاجراج النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي من أزمته لم يؤد إلا إلى ادخال هذا النظام في آخر أزمة له تختم طوره بأجمعه في الجملة الانسانية وتنبه ليقوم الطور الأعلى الذي هو الطور الاشتراكي العالمي . ليس هناك بعد الامر يالية الرأسمالية الواحدة في العالم إلا زوال هذه الامر يالية .

ولقد تشابه طور الرق وطور الرأسمالية ، لا سيما في مراحل الاحتكار منها ، في غل يد الانسان وسحق حريته وتعطيل مبدأ التكافؤ بين الأفراد وبين المجتمعات والشعوب . فالرق ، عندما كانت وسائل الانتاج بسيطة وكان الحصول على هذه الوسائل واتقان استعمالها بالتالي متاحاً ، استعبد الانسان وجعله سلعة وممكنة انتاج . ووضع أيضاً كل ما يلزم من علاقات عدم التكافؤ بين الناس ، وضع كل القواعد والحواجز لضمان سلطة طبقة محددة هي طبقة السادة ، الأمر الذي جعل من الناس الآخرين من خارج هذه الطبقة لا يفضلون كثيراً الرقيق في تلقي القهر والمهانات ، وإن كانوا قد صُنّفوا أحراراً . ثم إن المجتمعات التابعة في امبراطوريات الرق كانت بفرها وتحلفها مصدراً للرقيق . أما في الطور الرأسمالي ، عندما أصبحت الرساميل اللازمة للانتاج بعيدة كل البعد عن تناول كل الأفراد ، إلى جانب بعد تكنولوجيا الانتاج ورساميله عن المجتمعات المتخلفة في الجملة الانسانية ، فإن الرأسمالية استعبدت الانسان وجعلت من قوة عمله سلعة يستهلكها الرأسمالي في تحريك مكنتة الانتاج ، وأقامت نظاماً يتجنّد فيه الناس بحسب حظوظ ومؤهلات كل فرد منهم : من الشغيلة المنتجين إلى المستخدمين وإلى الذين ينجزون متطلبات النظام في البحوث والادارة والقمع الخ . . بالإضافة إلى جيش العاطلين الجائعين . أما البلاد المتخلفة فإنسانها مقهور وثوراتها منهوية من قبل طبقة الرأسماليين في البلاد المتقدمة مادياً .

إن تحرير الانسان وتحرير مجتمعاته لا بد له إذاً في النتيجة من أن يبدأ من منع احتكار الانتاج من قبل فئة قليلة ، هذا الاحتكار الذي يحصل باسترقاق المنتج ، كما كان يحصل في طور الرق ، أو بملكية الوسائل الحاسمة للانتاج من قبل أفراد . وقد تبين لنا ، بما شاهدناه أعلاه ، أن منع احتكار الانتاج حصل في طورين انسانيين هما طور المشاعة البدائية ، عندما افتقد الانسان وسائل الانتاج الجيدة وامتنعت عليه فائدة الاسترقاق ، وطور الاسلام ، عندما توفرت وسائل الانتاج الجيدة وامكان حيازتها واستعمالها باتقان من قبل أي فرد في المجتمع . فالثورة الاسلامية الكبرى ، عندما هدمت طور الرق وأزالت قواعد وحوافزه ، فتحت أمام الحرفة التي كانت تمارس من قبل الأحرار آفاقاً غير محدودة لازدهارها ورفيها . ففي هذا الطور لم يكن احتكار وسائل الانتاج ممكناً لبساطتها ، كما أن الحصول على المهارات اللازمة لممارسة الحرفة ، وإن اتبع قواعد وأعرافاً صلبة ، لم يكن مستحيلاً . أما السوق فكانت مفتوحة للجميع يبارسون فيها عملية التبادل . لذلك كان التكافؤ بين الناس مضموناً مادياً على العموم : بإمكان أي انسان ماهر مجد أن يصعد السلم إلى أعلاه كما بإمكان أي انسان أن يجد موقعاً في المجتمع يوفر له الحياة الكريمة أما من الناحية الروحية فإن العقيدة الاسلامية قد كفلت تكافؤ الناس من كل الأمم والنحل بشكل مطلق . ولا ننكر هنا أنه وقعت في هذا الطور وتكررت مراراً الأزمات ، كما حلت المجاعات والكوارث بالناس ، ولكن جوهره وأساسه الذي قام عليه هو تعاون الناس وتكافؤهم وتكافلهم .

## الأفكار الأوروبية الضيقة

إن كتابة التاريخ العام، تاريخ الانسانية، بشكل تتمحور فيه الأحداث حول أوروبا إلى درجة يصبح معها هذا التاريخ وكأنه تاريخ الأقوام الأوروبية فقط، كما جرت عليه العادة حتى الآن، هذه العادة في تصوير حوادث التاريخ مبعثها التعصب و«الأفكار الأوروبية الضيقة» المشابهة للأفكار الأرضية الضيقة التي كانت تسود قبل عصر كوبرنيك وتقول: إن الأرض في مركز الكون، وإن كل شيء في الكون يدور حولها. فالتاريخ، بحسب هذه الأفكار المظلمة لم يبتدىء إلا باليونان ليصل فقط إلى الأوروبيين الرأسماليين ماراً بالروم واقطاعياً القرون الوسطى الجرمن. بل أن هنالك الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين الأوروبيين ما يزالون حتى أيامنا هذه أسرى الأوهام والخرافات التي تولدت في تخيلاتهم بسبب تعصبهم وجهلهم وتأخر تطور نفسيهم المليئة بالخذر والريب البدائين، فيستمررون بالنظر إلى كل غريب، إلى كل شرقي على الأخص، على أنه متوحش لا يملك بطبيعته، وليس بظروفه، أي مؤهل لتمثل «الفكر الأوروبي» وكأنه من طينة تختلف عن طينة البشر. ولننظر إلى النموذج التالي (من عدد لا يحصى من أمثاله) لوصف الشرقي في نشرة جامعية أوروبية لمحاضرة أستاذ الفلسفة «الير ريغو»: «... لقد طرأ تحول عميق في المشاعر الدينية قبل عصر المسيحية وسببه في الدرجة الأولى، كما رأينا، وصول عدد كبير من الشرقيين إلى امبراطورية الاسكندر، أولاً، ثم إلى الامبراطورية الرومية، أتوا من آسيا الصغرى ومن أفريقيا، وحتى من مناطق أبعد، من فارس وبلاد العرب والهند. وعقول هؤلاء المهاجرين لا تدور كما تدور عقول الهلنيين والروم. فهؤلاء الشرقيون أناس بسطاء ومخادعون في ذات الوقت، يرتبطون بمعتقداتهم الخاصة في الوقت الذي يهدفون فيه إلى فرض هذه المعتقدات على جيرانهم اليونان والروم. فهم بمزاجهم دعاء... والفكر الشرقي لم يتخلص أبداً من الخرافات...».

انتهى قول الاستاذ الجامعي الأوروبي الذي يجهل جهلاً تاماً أسوداً أن معظم علماء ومهندسي وفلاسفة امبراطوريتي اليونان والروم كانوا من أولئك «المشاركة» الذين بحسب زعمه، لا يدور عقلهم كما يدور عقل الهلنيين والروم وذلك لسبب بسيط هو أن هاتين الامبراطوريتين قامتا أساسياً في بلاد «المشاركة» المذكورين.

وليست الأطوار التاريخية، من المشاعة حتى العليا منها، أوجه نمو الانسان الأوروبي أو أي انسان لجنس واحد فقط، وإنما هي، كما سبق وقلنا وأكدنا، أوجه تكوّن المجتمعات الانسانية في كل متناسك هوجلة المجتمعات الانسانية، إن النظام الاشتراكي مثلاً يشكل وجهاً متقدماً لتكامل ونمو جملة المجتمعات الانسانية بكليتها، فهو لا يقوم بكل أبعاده اذن إلا كنظام سائد بشكل مطلق عالمياً. لذلك لا تصح النظرية القائلة بأن دولة بمفردها (كالاتحاد السوفيتي أو غيره) تستطيع تحقيق الاشتراكية بكل أبعادها، بل تجاوزها إلى المرحلة الأعلى، مرحلة الشيوعية العليا حسب التعبير الماركسي، في حدود مجتمعاتها في ظل نظام رأسمالي سائد عالمياً، وإن استطاعت المساهمة بنصيب كبير في دفع الجملة الانسانية نحوها. ولعل تلك «النظرة الأوروبية الضيقة» هي التي كانت في أساس الخطأ الفادح عندما اعتبرت الماركسية اقطاعيات أوروبا القرون الوسطى طوراً عالمياً متقدماً بالنسبة إلى طور الرق، وذلك بإهمال طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة الذي قام وازدهر في المناطق التاريخية الثلاث المار ذكرها قبلاً: منطقة البحر الأبيض المتوسط، والقارة الهندية، والصين، التي وحدتها دار الاسلام في جملة انسانية واحدة. وبما مهد إلى هذا الخطأ الفادح، وغيره من الأخطاء، عدم اعطاء الأهمية الكافية لارتباط المجتمعات فيما بين بعضها بعضاً لتشكيل الجملة الانسانية مجتمع المجتمعات، مع

محاولة رؤية «الشريط الكامل» للتطور الاجتماعي في مجتمع واحد فقط: انجلترا مثلاً في عهد ماركس والاتحاد السوفيتي في عهد الشيوعيين المتأخرين. وإننا نجزم بأن البناء الجديد (البير يستر ويكا) القائم حالياً في الاتحاد السوفيتي كان نتيجة لهذه الأغلاط في نظير الأطوار الانسانية وتظير مرحلتنا الحالية للانتقال إلى الطور الانساني الأعلى الذي ستر فيه الاشتراكية بكل أبعادها بعد أن تقوض نهائياً نظام العبودية الرأسمالي. فالذي فشل واستدعى «البير يستر ويكا» وغيره من نقد ومحاولة اصلاح المسيرة الانسانية نحو الاشتراكية ليس هذه المسيرة بالذات وهدفها وإنما معوقاتنا كالبير وقراطية والجمود وكل ما يقرب وضوح الواقع والمتطلبات الحقيقية للتقدم إلى ظلام الوثنية والجهل لخدمة مصالح انتهازية حقاء.

إن العرقية على اختلافها، لا سيما منها ظاهرة الصهيونية في الامبريالية المعاصرة، مهدت لهجومها المادي على الشعوب بهجوم فكري شنته منذ أواخر القرن الماضي، تاريخ بلوغ الرأسمالية مرحلتها العليا واقتسام الكرة الأرضية من قبل المستعمرين. والغاية من هذا الهجوم هو تبرير الاستعمار بمحاولة إبراز تفوق الجنس الأوروبي وانكار كل ميزة في الأجناس الأخرى: وفي النتيجة انكار انسانية هذه الأجناس ليكون ادلائها، بل إبادتها في كثير من الأحيان كما أيدد الهنود الحمر في ذلك التاريخ بالذات في الولايات المتحدة الأمريكية، أمراً غير مستهجن. وقد تمكنت الصهيونية إلى حد بعيد من إثارة الغبار والتشويش حول كثير من حقائق التاريخ العام المتعلق بالعرب والاسلام بصورة عامة وذلك بما لها من نفوذ وبهيمنة في الدوائر الثقافية وفي دور النشر الأوروبية التي لها أيضاً مصلحة في تشويه تلك الحقائق في تلك الحقبة التي كانت فيها أوروبا منهمكة في انهاء تهديم دار الاسلام. وكان غرض الصهاينة تهيئة الأفكار في العالم لقبول غزوهم للأرض العربية بدءاً من فلسطين. وأول هدف كبير وقع عليه الهجوم الصهيوني هو وجود فكر عربي متقدم قبل الدعوة الاسلامية. وكان هذا تمهيداً لفصل هذه الدعوة عن اطوارها الطبيعي، لاقتلاع جذورها من الأرض التي نبتت فيها، لجعلها، باختصار، حادثاً منعزلاً ليس له أي أثر في سير التاريخ العام، وبالتالي انكار الأمة العربية، وايام العالم بأن الأرض العربية التي تطمع الصهيونية باحتلالها فارغة لا يسكنها إلا «هنود عرب» تماماً مثل أولئك الهنود الحمر الذين كان «اليانكي» في تلك الأثناء يقومون بإبادتهم بكل إصرار لا مثيل لوحشيتهم. بل أن نبي الصهاينة الكذاب هرتزل كان يستعير من الأمريكيين ذات الطرق التي كانوا يتبعونها في إبادة الهنود الحمر حينذاك كاقتراحه حشر العرب في أراض موبوءة مثلاً لتقضي عليهم الأوبئة وسموم الحشرات والزواحف. وبلغ الهجوم الصهيوني الفكري أوجه على الأمة العربية في العشرينات من هذا القرن، غير بعيد عن التاريخ الذي صدر فيه وعد بلفور. فقام الصهاينة من المتخصصين بالدراسات العربية، وفي طليحتهم الصهيوني دافيد صموئيل مرغليوث، مع تلميذه الدكتور طه حسين، بحملة انكار للشعر الجاهلي ولكل ما هو جميل وسامي في الفكر العربي ككتاب عمر بن الخطاب مثلاً إلى أبي موسى الأشعري في مسألة القضاء بين الناس. وكان هذا في العشرينات من هذا القرن، في الفترة التي كانت فيها سلطات الاستعمار البريطاني تقوم بتنفيذ وعد بلفور بانتزاع الأراضي من العرب وتسليمها إلى الصهاينة الذين كانت أمواجهم تندفق على فلسطين. وطرح حينذاك تلك المسألة العجيبة وهي: «نقد أدب وفكر أمة وتجريحها على مدى تاريخ هذه الأمة» التي هي أمتنا العربية ذات الحضارة التي لا ينكرها إلا جاهل. وكان من نتيجة طرح هذا الموضوع أن قامت ضجة اجتاح كل الأقطار العربية، فكتبت المقالات وألفت الكتب في الرد ورد الرد، وكادت مسألة فلسطين أن تغيب وسط

## مجتمع الجملة الانسانية

يتكون المجتمع وينمو ككل كائن مادي حي ثم يتفسخ ويضمحل . فلا يوجد مجتمع دائم أزلي . بل إن المجتمعات ترتبط بحقبة تاريخية محددة فتلد بقيامها وتندثر بانتهائها . وتتميز هذه الحقبة التاريخية بعوامل وعلاقات عديدة : اقتصادية وسياسية واجتماعية . وكما أن الكائن المادي يتعرض في بعض الأحيان لأحداث مادية تمنعه من أن يستمر في انمام حياة طبيعية ، فإن المجتمعات أيضاً قد تتعرض لما يسبب لها مرضاً أو كارثة فتتسط وتندثر قبل الأوان . والحياة الطبيعية للمجتمع هي في كونه متقدماً مادياً وروحياً ومتفرعاً ثم يتوقف فيه التقدم فيجمد ويتقهقر ويتهي إلى الزوال ، وكل هذا في سلسلة من الظروف المناسبة : إن الانسان النياندرتالي مثلاً قد اختفى ، كما أن مجتمعات المشاعيات البدائية ومجتمعات الرق ومجتمعات الحرفة الحرة السائدة قد بادت كلها عملياً منذ وقت طويل . كانت المشاعية البدائية الواحدة مثلاً لا تعيش إلا فترة محددة في ذلك العهد البدائي فتلد وتنمو ثم تصل إلى مرحلة الانقسام إلى مشاعتين أو أكثر . أو أنها في ظروف أخرى تنوب في مشاعات غيرها ، أو أنها تباد من قبل مشاعة أقوى إلخ . . وفي عهد الرق قامت مجتمعات وبادت أخرى . لقد كانت هناك مثلاً العرب العاربة أو البائدة ، ثم قامت العرب الباقية أو المستعربة . كما أن كثيراً من المجتمعات العربية ، قبائل وأحياء تركت الجزيرة وتفرقت في أقطار دار الاسلام التي قام بها طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة . وفي العهد الراسمالي انقضت أجناس كثيرة من الحمري في أمريكا ، والسود في افريقيا واستراليا والسمر في الهند وغيرهم . ونشأت مجتمعات كثيرة لم تكن موجودة قبلاً : مجتمعات كندا والولايات المتحدة الأمريكية والمجتمعات اللاتينية فيما بقي من أمريكا ومجتمعات البيض في جنوب افريقيا واستراليا ونيوزيلندا .

تشكل الأسر والأفراد محتوى المجتمع الذي يقوم عندئذ على نظام ، على شكل ، يتألف من مجموعة العلاقات الأساسية الدائمة نسبياً ، ومن علاقات طارئة وغير دائمة . فهذا المحتوى يتغير ، يجري ، باستمرار : تنحل الأسر بموت الآباء على العموم ، وهي تتولد بلا انقطاع بالتزاوج . ثم إن هنالك الموت والولادة الأزليين في المجتمع . لكن المجتمع يبقى ما بقى نظامه ، ما بقيت علاقاته الأساسية ، حيث تتوفر الشروط اللازمة لديمومة التجدد المستمر للمحتوى الأنف الذكر . وأن يذور الجديد في المحتوى الاجتماعي تأتي من القديم : الآباء يلدون الأبناء ، الأسر الجديدة تتولد من تلك التي سبقتها بالوجود . وتستمر حركة تجدد المجتمع في الجو الملائم للحياة ، على أرض مثلاً تمكن من العمل والانتاج الضروريين لحياة الانسان . أي أن هناك حيث يقوم مجتمع يوجد قبل كل شيء البيئة المادية لديمومة الحياة ، وهي بيئة تنتمي إلى العالم العضوي الكائن بدوره في وسط ملائم على الكرة الأرضية . فالحياة الانسانية تنبت في بيتها ، في تربتها وفي جوها . أي أن محتوى المجتمع يأخذ منابمه عندما يجري من تلك البيئة ويصب فيها في الوقت ذاته . وفي هذا الجريان تقوم سلاسل معقدة تتألف من مجموعة سلاسل يرتبط بعضها ببعضها الآخر بمختلف الرباطات والعلاقات المادية والفكرية والروحية : التزاوج والتعامل على اختلافه والصداقات وكل ما يصل الانسان بالأخر بأي شكل من الأشكال المادية والروحية ، بحيث يقوم في النتيجة ذلك النسيج الانساني المعقد الذي هو المجتمع . وهذا النسيج يتصف بخواص معينة تحدد هوية المجتمع الناشء عنه ، أو تميز هذا المجتمع من غيره . ومن أهم هذه الخواص تلك



التي تؤهل هذا المجتمع للقيام بدوره، بوظيفته، بين جملة المجتمعات الانسانية.

إن جملة العلاقات المادية والروحية للمجتمع تشكل على العموم وحدة كاملة نواتها علاقات الانتاج الكافية لقيام حياة هذا المجتمع وقيام وظيفته وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى. والوحدة الأنفة الذكر تتراوح بين البساطة وأعلى درجات التعقيد. هناك مثلاً المجتمعات البسيطة الصغيرة مثل مجتمع القرية، والمجتمعات المعقدة كمجتمع المدينة، والمجتمعات المركبة المؤلفة من عدد من المجتمعات البسيطة والمعقدة التي تؤلف جميعها كلاً متكاملًا كمجتمع قطر من الأقطار الخ... ثم أنه تنشأ عن مختلف التفاعلات والعلاقات التاريخية بين المجتمعات كيانات انسانية مؤقتة وعابرة كالدول، وكيانات دائمة نسبيًا كالأمم والأجناس.

## الأمة

إن الأمم ليست مجرد بنيات وظواهر خاصة بالطور الرأسمالي. إنها نتيجة عمليات اجتماعية طويلة الأمد. ولقد تفاعلت المجتمعات دهوراً طويلة فيما بين بعضها بعضاً أثناء نشوئها ونموها. وقد تولد وبأمنها الكثير، وقامت دول ودالت ممالك وامراطوريات، ومرت كل الأطوار الانسانية المعروفة، لتبرز في النتيجة كل أمة من الأمم القائمة حالياً. وإذا كنا لاحتظنا في العهد الرأسمالي صراع الأمم واتضاح حدودها، فإن هذا لا يعني أبداً أن هذه قد تولدت بنتيجة قيام العهد المذكور فقط، وإنما يعني أن العملية التاريخية الطويلة في نمو وتطور كل أمة قد بلغت مرحلة متقدمة في طور الرأسمالية. وإنه مما لا شك فيه أن التقدم في تكامل جملة المجتمعات الانسانية بعد الطور الرأسمالي سيرز المزيد من خصائص الأمم وبمميزات المتطورة والمتنامية. ذلك لأن العناصر الأساسية، الأعضاء الرئيسية لجملة المجتمعات الانسانية هي الأمم التي تتكامل وتنمو فتتكامل وتنمو معها هذه الجملة.

نقول أن المجتمعات على اختلاف حجومها وسوياتها تتفاعل فتبرز باستمرار الأشكال الجديدة منها: المتقدمة المتنامية القوية، أو المتقهقرة السائرة نحو الفناء، أو الراكدة الغافية عما يدور حولها. وقد قامت هجرات كبيرة فتحركت مجتمعات برمتها في كل أصقاع العالم فالتقى بعضها ببعضها الأخر وتفاعلت فيما بينها. ومرت أطوار تاريخية وقامت حضارات عالمية واطمحللت. ومن الواضح أن الحياة هي على الدوام دافع كل حركة اجتماعية: إنها تتجلى بالحركة، بتفاعل المجتمعات وتقدمها، بالحضارات، وهي تنتهي بالركود وتتفسخ بالجمود. وقد برزت نتيجة لكل تلك السلاسل من التفاعلات والحركات الاجتماعية في أقطار مناطق المدينيات العالمية التي كنا ذكرناها فيما سبق: مناطق البحر الأبيض المتوسط والهند والصين، روافد تاريخية انسانية متنوعة لكل منها خصائصه المميزة. ثم إن كل مجموعة متقاربة ومتكاملة من هذه الروافد تفاعلت فيما بينها، عند تقدم الجملة الانسانية في نموها وتكاملها، وكونت أمة من الأمم المعروفة، وكانت يسيرها على سبل تاريخية تلتقي في مصير واحد:

١ - إن روافد الأمة الواحدة التقت في عدد من الحضارات من خلال أدوارها التاريخية التي يكمل بعضها بعضاً، فساهمت بهذا في تكوين مجتمع مركب وحدها، في جملة المجتمعات الانسانية، في هوية جامعة مميزة هي هوية الأمة.

٢ - كان التقاء روافد كل أمة على أرض تحدت بنتيجة التفاعلات التاريخية التي حصلت فيما بينها عند

تقدم جملة المجتمعات الانسانية في نموها .

٣ - إن العملية التاريخية الطويلة لتكامل الأمة ولدت و تطورت فيها الوسيلة الأساسية لاتصال وارتباط

الأفراد والجماعات والمجتمعات المختلفة التي تكونها، ولدت لغتها .

٤ - بنتيجة الاشتراك الطويل في أحداث اجتماعية واحدة والقيام بأدوار متكاملة، عند الاسهام في

تكوين جملة المجتمعات الانسانية، اكتسبت الروافد المذكورة تاريخاً موحداً هو تاريخ تكون الأمة كجزء متميز، كعضو قائم بوظيفة محددة في الجملة الانسانية .

٥ - إن تكامل الروافد بالأدوار التاريخية التي قامت بها، أثناء نشوء ونمو جملة المجتمعات الانسانية،

وبالتالي اشتراك هذه الروافد بتكوين الأحداث وتفاعلها أثناء ذلك وقد يكون تفاعل رافدين أو أكثر في بعض

الظروف التاريخية سلبياً، بمعنى تناقض الرافدين أو الروافد وتضادها إلى درجة الاقتتال والتفاني، ومثال ذلك

اقتتال القبائل والأقطار العربية وتمزقها في أيام الجاهلية، كل جاهلية، ثم عودتها في أيام النهوض للتكامل ايجابياً

ضمن اطار الأمة الواحدة) نقول أن الاشتراك في تكوين الأحداث المتداخلة المعقدة مع مختلف الممارسات

وأنواع النشاط لاقامة وإدامة الحياة يولد في النتيجة الاشتراك في تكوين نظرة شاملة موحدة (مركبة ومعقدة)

للوامع المحيط وتاريخه . فهذه النظرة الشاملة تتطور مع تطور الأحداث التي تمر بالروافد المذكورة فتتسع في

بعض الظروف التاريخية وتزدهر، وتضيق وتمحل في ظروف أخرى، إلا أنها تتواصل بتوالي الأيام، وفي النتيجة

تصبح النظرة المذكورة، المستطيلة ما تتالت أزمان نشوء الأمة، أساساً في تكوين الحياة الفكرية للأمة، كما

تصبح اطاراً للدرور العائد إليها في إقامة الحضارات العالمية المتتالية .

٦ - إن كل تلك القرابات المادية والروحية الناشئة عن الأمور الآتفة الذكر، اللغة الواحدة والتاريخ

المشترك والحياة الفكرية الموحدة والأهداف والتطلعات الواحدة وكل ما شابه، تشكل أساساً لتوحيد نفسية

الانسان في كل تلك الروافد في نفسية واحدة تقوم عليها الارادة الموحدة للأمة .

٧ - إن كل الأمور السابقة، التاريخ المشترك للروافد، وتكون الوطن ضمن حدود تاريخية مع اللغة

المشتركة والنفسية والارادة الموحدين جعلت من الروافد المذكورة عناصر كيان موحد له دور محدد في بناء وتقديم

جملة المجتمعات الانسانية، كما أن كل رافد، بكل مجتمعاته وفتاته، يرتبط في نهاية الأمر مصيرياً بذلك الكيان

الذي هو الأمة نتيجة لعملية تكوّن طويلة جعلته جزءاً عضواً منه . والخلاصة : أن نشوء الأمة وتكاملها عملية

تاريخية لها وجهان : فهي في الوقت الذي تشكل فيه عملية نشوئها وارتقائها فإنها، أي العملية التاريخية، تؤلف

دورها الذي تضطلع به في بناء جملة المجتمعات الانسانية . وهنا نلاحظ الأهمية القصوى لدور، لوظيفة، الأمم

(والمجتمعات على العموم) في قيام الجملة الانسانية فهو يعادل وجودها . وأن الاستعمار وكل أشكال العبودية

عندما تسبب شلل الوظيفة المذكورة أو تلغيها فإنها تشل أو تقتل في ذات الوقت المجتمع صاحب هذه الوظيفة .

## أطوار تكون الأمم

قلنا أن الأمة ليست تجمعاً مؤقتاً لعدد من المجتمعات يقوم بسبب قيام نظام أو طور معين، إنها كما نرى

نتيجة التحام عضوي لروافدها الانسانية، التحام يتم بعملية طويلة الأمد تبدأ مع نشوء جملة المجتمعات

الانسانية وتتم بتسام كمال صورتها . ذلك لأننا قلنا أن الأمم هي الأعضاء الحيوية لهذه الجملة الانسانية،

عناصرها المكونة. فالأطوار التاريخية التي مرت معنا، إذ هي أطوار تكوّن جملة المجتمعات بكلّيتها، هي أيضاً أطوار تكون الأمم:

أولاً: المشاعات البدائية هي الأصول، البنابيع، التي بدأ بها تكوّن روافد الأمة: إن المشاعات البدائية مثلاً في وادي النيل ووديان الأهليلج الخصيب كانت ينابيع الروافد الأولى للأمة العربية التي التقت فيما بعد بروافد أمتنا من شمال إفريقيا.

ثانياً: طور الرق كان طور الهجرات الكبرى للأقوام لتقوم في النتيجة العناصر الأولية والأساسية لتكوّن الأمم، لتبرز روافد الأمم في أمصار محددة.

ثالثاً: طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة كان طور انبهار الحواجز بين أجزاء الجملة الانسانية الثلاث في مناطق البحر الأبيض المتوسط والهند والصين. وقد استمرت في هذا الطور التفاعلات الكبرى بين المجتمعات، إلا أن هذه التفاعلات، بعد بروز روافد الأمم في الطور السابق وتوطدها في أمصارها، كانت على العموم بين هذه الروافد في اطار دول وامبراطوريات ضمت الواحدة منها في بعض الأحيان أكثر من أمة واحدة وفي أحيان أخرى جزءاً من أمة.

رابعاً: طور الرأسمالية، فيه اشتد تماسك مجتمعات الجملة الانسانية وتم أيضاً الشكل العام لما ستكون عليه الأمم عند تمام نضجها وتعيينت حدود أرض الوطن لكل أمة.

خامساً: طور الاشتراكية حيث يتم فيه تشكل جملة المجتمعات الانسانية بكل تفاصيلها وتخلابها، وفيه أيضاً تحرر كل الأمم تحمراً تاماً: تحرر كل أمة من التخلف، بالنسبة إلى الآخرين، ومن الاضطهاد الداخلي والخارجي ومن كل دافع يدفعها للقيام بالعدوان أو الرصاية على الآخرين. فبتم بهذا بروز خواص كل أمة ويتأكد شكلها ومحتواها النهائيان كمضونام التكوّن ومتكامل في ذات الوقت مع الأعضاء الأخرى في جسم الجملة الانسانية العالمية.

نجد في النتيجة أن العوامل الاقتصادية، المتغيرة نسبياً بسرعة، عندما تشكل بتحولاتها الأساس المادي للتفاعلات الاجتماعية التاريخية المؤدية إلى قيام الأمم، في ذات الوقت الذي هي فيه بتسلسلها وتطورها الأساس الذي تقوم عليه الأطوار المختلفة لجملة المجتمعات الانسانية: من المشاعة إلى الاشتراكية، فإن النظر إليها وأخذها في زمان محدود نسبياً، في طور مثلاً، لا يكفي للدلالة على قيام أو عدم قيام أمة من الأمم: إن الامبراطوريات الرأسمالية مثلاً تشكل على العموم اقتصاداً متكاملًا، ولكن الواحدة منها لا تشكل أمة واحدة على الرغم من وحدة اقتصادها. وفي العهد الرأسمالي نجد الأمة الواحدة مجزأة في عدد من الامبراطوريات والوحدات الاقتصادية المختلفة.

وكذلك وحدة اللغة لا تكفي للدلالة على وحدة الأمة، فقد نجد أكثر من أمة بلغة واحدة كالأمم الانجلوسكسونية مثلاً والأمم الناطقة باللغة الفرنسية وأمم أمريكا اللاتينية. فالأمة إذن هي بنت التاريخ وهي تتميز لذلك بجملة متكاملة من الخواص الناشئة عبر طريق تاريخي طويل، ولها مكان محدد ودور معين في جملة المجتمعات الانسانية العالمية. ونرى أن عملية تكامل الأمة لا تتم إلا بتنام نضج جملة المجتمعات الانسانية، أي في العهد الاشتراكي وفي مرحلة متقدمة منه عندما:

- تتحرر الأمم من كل عبودية؛

- وتتكافأ فيما بين بعضها بعضاً بالتقدم وبالسوية المادية؛

- وتحدد لكل منها دور في جسم جملة المجتمعات الانسانية تقوم به هي وحدها بشكل مستقل دون أي تدخل أو وصاية أو اعتراض من قوة أجنبية، وإن كان هذا الدور يقع في الاطار العام الذي يضم كل الأدوار الأخرى لبقية الأمم ويتكامل مع هذه الأدوار لبناء الحركة التاريخية العامة للجنس البشري، وإن كان جزءاً من حياة جملة عالمية واحدة تضم كل الأمم. لقد قلنا إن كل أمة هي عضوفي جسم جملة المجتمعات الانسانية هذه، والعضو في كل جسم له دور مستقل، له حياته الخاصة به، وإن كان هذا الدور يتم أدوار الأعضاء الأخرى.

إن المجتمعات الانسانية، في الأطوار السابقة لطور الاشتراكية، لا تتكافأ بالتقدم المادي والروحي، ولكنها تدخل في علاقات يفرضها التطور القائم للجملة الانسانية التي تضمها جميعها. وإن تقدم مجتمع أو تخلفه ما كان، ولن يكون، أمراً مطلقاً وإنما هو نتيجة التفاعلات الداخلية للجملة الانسانية كمجموع. لذلك نجد الحضارات تتوهج في مجتمع ما بينما ينتشر ظلام التخلف في مجتمع أو مجتمعات أخرى. ثم تخبو الحضارات حيث كانت تتوهج ليقوم في أثرها ظلام التخلف في ذات الوقت الذي تتوهج فيه في مجتمع أو مجتمعات متخلفة. ذلك لأن الحضارة والتخلف هما معاً للجملة الانسانية بكليتها، للجملة الانسانية المتقدمة من طور إلى طور: في الواقع نجد أن الحضارة لا بد من أن تكون عالمية وكذلك حال التخلف. كل البشر، متقدمهم ومتخلفهم، يساهمون في ترسيخ أسس الحضارة ورفع بنيانها وإن استطلت بعلم هذا القوم أو ذاك، فالقوى المتقدم في حضارة من الحضارات التطبيقية لا يستمد قوته إلا مما يأخذه من كدح المتخلفين في الجملة الانسانية حسب تسلسل يبدأ بمستضعفي بلده الأصلي ليمتد ويصل إلى الأقوام الأخرى المقهورة بعدوانه بحسب نظام طوره القائم. والضعيف المتخلف لا يُستضعف ويقهر إلا بنتيجة ما يقدمه إلى الأقوياء المتقدمين مادياً في الجملة الانسانية حسب تسلسل يبدأ بأقوياء بلده الأصلي القائمين بوظيفة «وقاف» للأقوياء العاديين على وطنه ليصل في النتيجة إلى خزائن هؤلاء الأقوياء الأخيرين، وكل هذا بحسب نظام التطور القائم. فالرأسمالية الاحتكارية مثلاً كان لها نظامها العالمي الذي خضعت له الجملة الانسانية: من أول عامل أبيض في معامل وورشات الاحتكاريين إلى آخر زنجي أو أصفر أو أسمر يكدح في الغابات والمناجم وعلى آبار النفط ليوبر ما يجر تلك المعامل والورشات من مواد أولية. وكما أن الشركة الرأسمالية الاحتكارية لا تقوم فقط على الرأسماليين الاحتكاريين ولا بد لها لتقوم من كادحين يقدمون فضل القيمة لأولئك الاحتكاريين، كذلك لا بد للامبريالية لتكون امبريالية من شعوب مقهورة تقدم للامبرياليين فضول القيم وتسمح لهم بنهب ثروتها. فالطور الرأسمالي الاحتكاري، كالأطوار التي سبقته والأطوار التي ستعقبه، هو طور عالمي، طور الجملة الانسانية برمتها ولا يخص فقط مجموعة البلدان الأوروبية وحدها. إنه يتضمن الوجهين المتكاملين معاً: وجه الفنى والتقدم المادي في أوروبا وأمريكا ووجه الفقر والتخلف في العالم المقهور، فهما دوماً وجهان متلازمان عالميان في الأطوار التطبيقية العبودية للجملة الانسانية. وقد سبق لنا القول بأن نظام المجتمع الأكثر تقدماً مادياً في الجملة الانسانية يحتوي الأنظمة الأخرى المتخلفة ويجعلها امتداداً له في المجتمعات التي تقوم فيها الحرفيون الهنود مع اقطاعيهم هم امتداد للاحتكاريين الانجليز في الهند عندما يوفرون فضول قيم اقتصاد الهند لتملاً خزائن هؤلاء الأخيرين، وبالتالي فإن الهند المستعمرة هي كمستعمرها الانجليز في التطور الرأسمالي

الاحتكاري ولكن في الوجه الاخر لهذا الطور العالمي وهو وجه التخلف والفقير.

## الأمة العربية

إن الأقطار التي قطنها الأصول الأولى للأمة العربية: مصر وجزيرة العرب وأرض ما بين النهرين وسورية، أو باختصار وادي النيل والأهليج الخصيب، هذه الأقطار كانت منذ أقدم عصور المشاعة مسرحاً للهجرات المتقابلة فيما بينها. وهذا يعني بوضوح أن تلك الأصول تكونت بعملية تاريخية واحدة هي قيام المشاعات البدائية في منطقة الأقطار المذكورة، ثم توزعها على هذه الأقطار وتفاعلها فيما بينها، واختلاطها عدداً كبيراً من المرات طوال العهود التي قام فيها طور المشاعة. وفي نهاية الأمر برز في كل قطر من الأقطار الأنفة المذكورافند متميز من روافد الأمة العربية. ولم يقف التفاعل بين هذه الأصول ليسير كل واحد منها في طريق يبعده عن الآخرين، بل إنه استمر واشتد على الدوام بتقدم الوسائل المادية للاتصال. ثم امتدت التفاعلات إلى أقطار أبعد، فبرزت روافد أخرى للأمة العربية في وسط وشمال افريقيا منذ حقب متقدمة من طور الرق، منذ أن ذهب ملوك مصرييحثون عن الذهب والثروات الأخرى في السودان، ومنذ ذهب الفنيقيون يقيمون مدنهم ومستعمراتهم في الساحل الشمالي لافريقيا.

لقد قص علينا التاريخ قصة العلاقات الكثيفة والمتشعبة لتلك الروافد على مدى أكثر من ستين قرناً، أي أكثر من أربعين قرناً قبل الميلاد: قص علينا أخبار العلاقات التجارية والهجرات المتقابلة وتاريخ المدن والدول والامبراطوريات التي اشتركت تلك الروافد في إقامتها. وفي بعض الأحيان كانت هذه تقع كلها أو بعضها تحت حكم امبراطوريات أجنبية كامبراطوريات الفرس واليونان والروم. ولكن فترات التبعية الأجنبية هذه كانت قصيرة جداً بالنسبة إلى العهود الطويلة التي كان فيها حكم المنطقة لأهلها حصراً. فالتدخل الفارسي مثلاً في المنطقة بدأ في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، في عهد قورش. ثم أعقب امبراطورية الفرس على التوالي امبراطوريتا اليونان والروم حيث انحسرت هذه الأخيرة بالثورة الاسلامية الكبرى في أوائل القرن السابع الميلادي. أي أن هذه الامبراطوريات الأجنبية لم تدم في المنطقة العربية أكثر من أحد عشر قرناً من أصل أكثر من ستين قرناً من التاريخ المعلوم (عدا فترات قصيرة جداً نسبياً ومتقطعة وفي أجزاء متفرقة من الوطن العربي كفترات الحروب الصليبية في سورية، والاستعمار الأوروبي الرأسمالي مؤخراً) عاشت فيها الروافد العربية سيدة في منطقتها: تتفاعل فيما بينها بشتى أنواع التفاعل، وتطور الصلات بين بعضها بعضاً، وتقيم الامبراطوريات والحضارات، مكونة بهذا هويتها المتميزة والموحدة. ولعل الاحتلال الأجنبي الطارىء في الوطن العربي، لعل قيام امبراطوريات الفرس واليونان والروم وغيرها في أرض الأمة العربية، هو من الأسباب القوية التي أيقظت وعي الروافد المختلفة للأمة العربية لهويتها الموحدة والمميزة. ومن المؤكد أن أمتنا تمكنت مع ذلك في ظروف الاحتلال الأجنبي المذكور من المساهمة بفعالية كبيرة في بناء الحضارات الانسانية، كحضارات الفرس واليونان والروم، بعد أن سبقت روافدها، في مصر وفيها بين النهرين وسورية والجزيرة لعربية في التأسيس لكل الحضارات الانسانية التي قامت فيها بعد.

يروي ديورانت في قصة الحضارة حول موضوعنا أموراً كثيرة هامة نقتطف منها ما يلي: «كان الشرق الأدنى بيدولعين الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الأدميين. . . وإذا عدنا إلى الخريطة وتتبعتها

المجرى المشترك المكون من نهري دجلة والفرات من مصبه في الخليج العربي إلى أن يفصل المجرىان (عند بلدة القرنه الحديثة) ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب، وجدنا في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة . . . وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة ينتمي هؤلاء السومريون . . . ولعلمهم سلكوا الطريق المائي من الخليج العربي، كما تروي الأساطير، أو من مصر أو غيرها من الأقطار، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متبعين علي مهل النهرين العظيمين . . . على أننا إذا تحدثنا عن بلاد السومريين نكون جد قريين من بداية التاريخ قريباً يصعب علينا معه أن نحكم حكماً دقيقاً أي الحضارات التي نمت في بلاد الشرق الأدنى والتي يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال أسبق من أختها . . . ذلك أن آلهة بابل ونيوى وأساطيرهما الدينية ليست في كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور: وإن العلاقة بين البابلية والآشورية وبين اللغة السومرية وتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والاطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى . . . ويقول ديورانت أيضاً حول ما يخص قرابة الحضارات القديمة في وادي النيل من حضارات الجزيرة العربية وحضارات ما بين النهرين ما يلي: « . . . ولقد لفت شوييفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة العظيمة الخطروهي أن الشعر والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والمزروالضأن، وإن ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد آسيا الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة . وهو يستدل من هذا على أن الحضارة، وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات الستأنسة، قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب، ثم انتشرت منها في صورة «مثلث ثقافي» إلى ما بين النهرين (سومروبابل وآشور) وإلى مصر . . . انتهى قول ديورانت. ومن الطبيعي أن تأتي الأقوام مع حضارتها في تلك العهود البالغة القدم، أن يأتي الرعاة مع مواشيهم والزراع مع بنورهم ليقطنوا الأراضي الخصبة في وادي النيل وفيما بين النهرين . ذلك لأنه من الصعب تصور مشاعات بدائية متباعدة بعضها عن بعض بتلك المسافات التي تفصل اليمن عن مصر وعن أرض ما بين النهرين تتبادل الخبرات في استئناس المواشي وإنبات الزرع عن طريق تبادل الوفود . . . ويقول ديورانت أيضاً: « . . . وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب في أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى آسيا الغربية أكثر مما تنتمي إلى أفريقيا (الأصح أنها تنتمي إلى المنطقة العربية في أفريقيا وآسيا). ومن ثم كان من الطبيعي أن نجد في الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين . . . انتهى قول ديورانت .

إن منطقة الأهليج الخصيب وادي النيل من الوطن العربي تتحكم بطريقتين عالميين واسعي الشهرة: طريق التوابل الذاهب إلى المحيط الهندي عبر البحار العربية أو بواسطة القوافل البرية عبر وديان الأهليج الخصيب، وطريق الحرير الذاهب إلى الصين براً. لذلك اضطلعت الروافد العربية الأولى بحكم هذا الموقع الهام لأوطانها بدور الوسيط العالمي بين مشرق العالم المعروف ومغربه . فكانت القيم والثروات تمر عبر تلك الأوطان وتتدفق فيها حتى جعلتها تشتهر عالمياً بأنها أرض اللبن والعسل، وغدت لذلك موضع طمع الطامعين في كل عصور التاريخ حتى يومنا هذا . وقد أتاح هذا الوضع المادي لتلك الروافد الأولى لأمتنا العربية بأن تسبق في إقامة الحضارات الانسانية الشهيرة، كما فرض على سواد انسانها تحمل عبء الطامعين من الأهل والغرباء والجهاد من أجل تحقيق تقدمهم المادي والروحي بتحرير مجتمعاتهم من جمود ووثنيات أولئك

الطامعين . فقامت فيهم ثورات التوحيد الكبرى الداعية إلى تساوي الناس ، وذلك انسجاماً مع دورهم في الجملة الانسانية كوسطاء عالميين . وكانت البحوث التاريخية وما تزال حتى يومنا هذا تركز، عندما تنصفنا وتعترف لنا بمزية اقامة الحضارات ، على بريق هذه الحضارات وجمالها ، وفي هذا التركيز انصاف و صواب ، ولكنه من جهة أخرى يحمل وجهاً أساسياً يقوم وراء هذا الجمال وذلك البريق وهو جهاد أقوامنا ومعاناتهم المريرة الدائمة في سبيل تصحيح المسيرة الانسانية التي طالما حرفها الطامعون وشوهوها ، في سبيل بناء تلك الحضارات بشكل أفضل يعم نفعه شواد البشر ويوفر خطوات أوسع وأسرع على طريق التقدم . إن إنسان الروافد الأولى لامتنا العربية رفع بثورات التوحيد احترام العقائد الصحيحة الصادقة المحررة لنفس الانسان من كذب و جهود الوثنيات ومن أطماع الوثنيين إلى مرتبة القداسة الدينية . ونحن في هذا البحث نحاول جهدنا لالقاء الأضواء بشكل خاص على هذه الناحية الهامة من تاريخ أمتنا .

